ميشيل حنا

الساحرة والكلب

دار الشروق



ميشيل حنا

الساحرة والكلب

رواية

دارالشروق ـــــ دار الشروق للنشر والتوزيع

سخطتني الساحرة الشريرة. حوّلتني إلى كلب

حدث هذا بعد مرض والدتي بقليل، بعد أن كشفتُ محاولاتها المستمرة لإغواء أبي، وإيقاعه في حبائلها. حاولتُ تحذير أبي منها مِرارًا. حاولتُ صدّها وإبعادها عن منزلنا، لكنها لم تكفّ، بل وهدّدتني بتحويلها إياي إلى كلب بلدي إذا لم أرتدع وأبتعد عن طريقها، وأنا لم أرتدع ولم أتراجع، ولم أصدق أنها قادرة على هذا، حتى نفَّذت تهديدها وألقت بتعويذتها، وحصل ما حصل.

لطالما كنت أشك في مدام سونيا جارتنا. كنت أشك في كونها ساحرة.. نعم، لقد كانت ساحرة، أما أنا فصرت كلبًا.

١

كنا أسرة عادية، قبل أن تعصف بنا هذه الأحداث.

تتكون الأسرة من أبي، الذي يملك محلا لبيع قطع غيار السيارات، وأمي ربة المنزل التقليدية، وأختي الكبيرة ماجدة، الطالبة في الصف الأول الثانوي، ثم أنا. اسمي ماجد، وأنا في الصف الثالث الإعدادي، أو هكذا كنت.

تسكن أسرتنا الصغيرة في عمارة صغيرة من طابقَيْن في شارع فاقوس بالقرب من ميدان سفير بمصر الجديدة. العمارة كانت مِلكًا لجدي، قبل أن تئول ملكيتها إلى أبي. نحن نسكن في الطابق العلوي، بينما محل أبي يقع في الطابق الأرضي من نفس العمارة. كان هذا هو الجزء المزعج من حياتي، فكل تفاصيلها تحت رقابة أبي الذي لا يخرج من الشقة إلا لينزل إلى المحل، ولا يخرج من المحل إلا ليصعد إلى الشقة، وبهذا فهو يراقب دخولنا وخروجنا ليلا ونهارا.

أبي رجل دائم التجهم دائم العصبية. يُؤنبنا ويعاقبنا على أتفه سبب، وأحيانا بلا سبب سوى لأن مزاجه

مُتعكّر أو لأن تجارته لا تسير كما يجب. وعقوباته تتضمن دائمًا حرمانًا من كل ما يمكن أن يمثّل إحدى مُتع الدنيا: المصروف ـ الإنترنت ـ لقاء الأصدقاء ـ الخروج من المنزل ـ الاستماع إلى الموسيقى، أو أي شيء آخر يمكن أن يساهم في جعل الحياة أقل مَللًا وأكثر احتمالا. طوال الوقت يحثنا على الجلوس للاستذكار، ولا يسمح لنا بممارسة أي شيء آخر حتى ولو كان مشاهدة التلفزيون، والمذاكرة لا تنتهي أبدًا، وأنا لست مُهتما بمسألة المذاكرة هذه على الإطلاق. ما فائدة التفوّق في دولة هي الأخيرة على العالم في مسألة التعليم؟ دولة لا تحترم المتفوّق في شيء ولا تُعطيه شيئًا، وكل الوظائف فيها تُعطى لأصحاب الوساطات، حتى الوظائف التي يُفترض ألا يحصل عليها إلا المتفوقون والمتميزون، كمِهَن القضاء والتدريس الجامعي. أنا أعرف مصيري. مصيري الأخير والمحتوم هو العمل في محل قِطَع الغيار الذي سيئول إليّ من بعد أبي، كما آلَ إليه من جدّي. إنه مصير محتوم فلمَ التعب؟ ومع أنني أعرف مصيري، ومع أن أبي يعرفه أيضًا، إلا أنه لا يتوقف ليلا ونهارا عن تقريعي بسبب درجاتي السيّئة، كأنه يريد لي أن أحصل على أعلى شهادة جامعية فقط لأُعلقها خلفي وأنا جالس في المحل. شهادة لمجرد الفخر الطبقي بلا أي فائدة حقيقيّة. أيّ عبث.

لا توجد في حياتي أي مُتع سوى متعة القراءة. أحيانًا أغرق في القراءة لساعات دون أن أشعر. أهرب إليها وفيها من واقعي المُملّ. أقرأ في كل المجالات وكل ما يمكن أن يُثير اهتمامي. مزية قراءة الكتب هي أنها عمل هادئ لا يُصدر صوتًا ومن الصعب اكتشافه. أنا جالس في غرفتي لأقرأ بينما هم يعتقدون أنني أستذكر. عشرات الكتب قرأتها في وقت الاستذكار، والتي بسببها أستطيع أن أزعم أنني مُثقف. لديّ تابليت مقاس ٧ بوصات حصلت عليه في أحد أعياد ميلادي. أقوم بتنزيل الكتب بصيغة pdf دون أن أتكلف شيئًا. أضع التابليت بين دفتَي الكتاب المدرسي وأقرأ. قرأت أعمالا عبقرية برَّاقة لامعة على الشاشة، وهي مدسوسة بين دفتَيْ كتب مدرسية سخيفة وبليدة وسيئة اللغة، تحوي كلامًا مضحكًا وساذجًا لا يصلح للتعليم في هذا القرن الذي أصبح بإمكاننا فيه الحصول على أحدث المعارف عن طريق ضغطة زر. كان هذا التناقض الصارخ يُثير شجوني على أحوالنا غير القابلة للإصلاح.

تدفعني القراءة إلى عوالم أخرى، وبسببها تنتابني الخيالات وأحلام اليقظة، فأستغرق فيها وأنجرف معها لساعات دون أن أشعر، وقد يستغرق مني الأمرُ بعضَ الوقت حتى أستفيق وأتقبل العودة إلى واقعي

المُمل والكئيب.

أحيانًا أشعر نحو أبي بِكُرهٍ شديد، إلا أنني أحاول دائمًا أن أكبح هذا الشعور، يدفعني إلى هذا بعضُ الوازع الديني الذي يحضّني على إكرام الوالدَيْن. لولا هذا فلا أعتقد أنني كنت سأستطيع ـ أو ربما كنت لن أحاول حتى ـ كَبْتَ شعور الكراهية هذا.

تتلخص حياتي في الذهاب إلى المدرسة والعودة منها والاستذكار طِيلة فترة ما بعد الظهر وحتى النوم. لا يسمح لنا أبي بأي أنشطة أخرى طِيلة شهور الدراسة، الأمر الذي قد يجعل فتى في مثل سِنّي يُصاب بالجنون. نعم، أودُّ أن أُمَارِس سِنيَّ مُراهقتي كما يُمارسها أترابي. أخرج إلى الشوارع وأتسكع وأتحدث إلى الفتيات وأتنزه معهن. أنتقي واحدة من مثل عمري. أمسك بيدها لتعبُر الشارع. آخذها إلى الحدائق لأبثها أشواقي. أتحدث معها بالساعات على الهاتف في المساء. كل أصدقائي في المدرسة يفعلون كل هذا وأكثر. يُثيرون جُنوني بحكاياتهم عن مُغامراتهم. أريد أن أفعل مثلهم أنا أيضًا، لكن الرقابة اللصيقة من أبي وأمي تمنعني من كل ذلك. كل ما أستطيع ممارسته من (صياعة) لا يزيد عن مشاهدة بعض البورنو على شاشة هاتفي الصغير تحت غطاء السرير ليلا.

كل مساء أخرج إلى الشرفة، أشاهد شباب أحياء المطرية وعين شمس والزيتون الذين يندلقون في ميدان سفير كل ليلة، يتحركون طيلة الليل على موتوسيكلات صغيرة بدون لوحات معدنية. يأكلون ساندويتشات الحواوشي من محل بروتين العائلات الشهير برغيف الأمير، ويُلقون بالأوراق المُلوثة ببقع الزيت على شريط المترو، بعدها يشربون العصير من عصائر العائلات، ويظلون رائحين غادين إلى وقت متأخر من الليل. بعضهم يتحرك في شِلَل من شخصين أو ثلاثة أو أكثر، ومَن هو أكثر حظًّا و«صياعة» منهم يأتي ومعه «المُزّة». يأكل معها الحواوشي على محطة المترو ويظلان مُلتصقَيْن مُتشابكَي الكفين حتى يأتي وقتُ العودة إلى المنزل. الثنائيات مختلفة الجنس ترحلُ مُبكرًا لأن البنات لا يستطعن التأخر ليلا دون أن يتعرضن لمشاكل مع آبائهن، أما الشِّلَل الذكورية فتظل تتجول حتى وقت متأخر، وأحيانًا حتى الفجر في ليالي الصيف الحارة.

كلما شاهدت هذه المشاهد من الشرفة احترقت غيظًا من أبي وأمي. بداخلي شوق مكبوت إلى الشوارع وحياة الشوارع ومُتعها اللامحدودة. محبوس هنا في القفص كحيوان أليف. سيأتي يوم أكسر فيه هذا القفص وأهيم في الشوارع كما أريد وأشتهي. أنا واثق من هذا وإلا فجنوني سيكون

قريبًا.

لقد كبرتُ وبلغتُ وتغيّرتْ أفكاري واحتياجاتي، بل جسدي نفسه تغيّر، وهم لا يفهمون ذلك وما زالوا يُعاملونني باعتباري الطفل البريء مُسطّح العقل الذي يجب أن يُطيع الأوامر بلا مناقشة أو اعتراض.

أما عن أختي، فحياتُها لا تقل مَللًا. لا أعرف الكثير عن أفكارها؛ فهي لا تصارحني بمشاعرها باعتباري الأخ الأصغر الأبله عديم العقل قليل الرباية، كما ينعتني أبي، لكني أشعر بها وأعتقد أنها تُعاني من الكبت كما أفعل. إن كلا منا له غرفته المستقلة على أي حال، لهذا يغرق كل منا في عالمه الخاص، حتى إننا نادرا ما نتبادل الحديث.

يصعد أبي إلى الشقة بعد أن يغلق المحل مساء. يجلس في الصالة يتناول العشاء أمام التلفاز. أبي مُغرم ببرامج التوك شو المسائية، وبخاصة البرنامجُ الذي يقدمه ذلك المذيع المقرف ذو الصوت الحاد والذي يتحدث بطريقة مقززة، والذي لا هواية لديه إلا سب ثورة يناير ونُشطاء ثورة يناير الذين خربوا البلد. أبي أيضًا يكره ثورة يناير. أمي مُتذبذبة، تكرهها أحيانًا، وترى أنها كانت ضرورة حتميّة أحيانًا أخرى، لكنها لا تجرؤ أن تُعلن آراءها أمام أبي. كان يمكن أن تغيّر هذه الثورةُ كل شيء. لقد بلغنا أخيرًا،

لكن قبل أن نمارس طقوسَ البلوغ أخذونا جميعًا لنُجري عملية إخصاء جماعي.

ينظر أبي إلى الأمور نظرة ضيقة. يناير بالنسبة له كانت خرابا لأن المحل تعرّض للسرقة بعد الثورة وخسر مبلغا كبيرا من المال. هكذا تم اختزال الثورة في حدث واحد، هو سرقة المحل. معظم الكبار لا يرون لأبعد من أقدامهم. يحب أبي كثيرا كل مذيعي النظام الجدد الذين تخصصوا في سبّ يناير والتحقير منها ومن كل ما يمتّ لها بصِلَة. يجلس أمام التلفاز يسمع ويهزّ رأسه مستحسنا. حين يصل إلى البيت ويدخل في هذه الحالة لا بد وأن أنسحب إلى غرفتي وأغلقها عليّ كي لا يصلني صوت ذلك المذيع الغبي. لكن، وبرغم كل الاحتياطات، فإن صوته يخترق الأبواب والحيطان ويصلني، الأمر الذي يصيبني بالغثيان. أبي يواصل رفع صوت التلفاز باستمرار، لا أدري هل هذا بسبب ضعف سمعه أم أنه يتعمّد أن يجعلني أسمع، باعتباري أحد أفراد ذلك الجيل الذي خرب البلد وجعل المحل يُسرَق.

أوصِل سمّاعات الصاب - ووفر بالموبايل وأرفع الصوت وأترك فريق Queen يصدح: I want to break free.

أريد أن أتحرر..

٢

بدأ كل شيء في حياتنا يتغيّر بمجيء مدام سونيا.

لدينا في العمارة شقة فارغة يقوم أبي بتأجيرها بنظام القانون الجديد. يفضل أبي التأجير للشركات التجارية، لأن الشركات تكون قادرة على دفع إيجار مرتفع لفترات طويلة بشكل منتظم، لهذا يرفض أبي دائمًا تأجير الشقة للأسر كسكن. عندما انتهى عقدُ إيجار الشركة التي كانت تشغل الشقة هذه المرة، فوجئنا بأبي يُخبرنا بأن جارة جديدة ستسكن في الشقة المقابلة لنا! هذه هي المرة الأولى - منذ تشكّل إدراكي ووعيي في هذا العالم - التي يقومُ فيها أبي بتأجير الشقة لتصبح سكنية! طلب منا أبي أن نُرحب بمدام سونيا عندما تأتي.

في اليوم التالي أتت مدام سونيا في تاكسي تصاحبها سيارة نصف نقل بها حاجياتها. وقفتُ أتفرّج عليها من الشرفة أنا وأختي، إلا أنني لم أستطع أن أتبين سوى أنها امرأة رشيقة ترتدي الأسود، لكن لم تصل لي أي من ملامحها إذ أتت ترتدي قبعة واسعة، وهو أمر غير معتاد لدينا في مصر! ما أدهشني - وأغضبني أيضًا - أن أبي خرج إلى الشرفة

وأمرنا بأن ننزل لنساعد في حَمْل أشياء مدام سونيا إلى شقتها. قلت له إن هناك عاملَين يقومان بتفريغ العربة وسيقومان بإصعاد الحاجيات. قال لي بأسلوبه الغاضب المعتاد إن العاملَيْن سيحملان الأثاث فقط ولن يساعداها على إصعاد حاجياتها الشخصية الموجودة في التاكسي، مع الكثير من التأنيب بخصوص الرجولة والنخوة وجيل هذه الأيام المهبب، وأنا قلت في نفسي منذ متى كان أبي يكترث لهذه الأشياء؟!

نزلنا ـ أختي وأنا ـ لنُساعد مدام سونيا. كانت تقف أمام سيارة الأجرة مُعطية ظهرها لمدخل المنزل. كان انطباعي الأول عنها أنها طويلة، أنها أطول من أمي، بل إنها أطول من أبي! التفتت إلينا، وهنا شعرت فورًا بشيء من عدم الراحة.

لا أستطيع أن أقول إنها ليست جميلة. ربما كانت جميلة جدًّا أيضًا. لا أعرف، فأنا مرتبك للغاية. إنها بيضاء البشرة جدًّا إلى حد الشحوب. عيناها واسعتان وعميقتان وحولهما كحل أسود كثيف يتناقض بشدة مع لون بشرتها. شعرها فاحم السواد ومسترسل على جانبَيْ وجهها، عيناها سوداوان وبنظرتها شيء غريب، لا تعرف هل هو حزن أم سخرية!

ترددت كثيرا قبل أن أُصرّح بهذا الخاطر الذي انتابني، لكن، إذا نبتَ لهذه المرأة منقار كمناقير البط لصارت شديدة الشبه بالساحرة سونيا التي كانت تظهر في مجلة ميكي!

بادرتنا بالقول دون أن تمد يدها بالسلام: أهلا يا ماجد. أهلا يا ماجدة. شكرا على المساعدة.

لم يردّ أيٌّ منا عليها. اتجهنا بصمت إلى السيارة التي كان صندوقها الخلفي ممتلئا بصناديق كرتونية صغيرة مُرتبة بعناية. حملت أختي صندوقين وحملت أنا صندوقين. كانا خفيفين إلى حد كبير. صعدتُ خلف أختي على السلم. كانت شقة مدام سونيا المقابلة لنا مفتوحة الباب، والعاملان يقومان بتركيب إحدى قِطَع الأثاث في غرفة النوم. وضعت أختي الصندوقين بجوار الحائط بجوار مجموعة من الصناديق المماثلة. يبدو أن عاملَيْ تركيب الأثاث قد سبقانا إلى حمل بعضها. لمَ فُرضت علينا هذه المساعدة إذن؟ ووضعت أنا صندوقَيَّ في نفس المكان. خرجت أختي لإحضار المزيد، بينما تلكأت أنا قليلا. نظرت حولي كي أتأكد أن أحدا لا يشاهدني، ثم رفعت غطاء أحد الصناديق لألقي نظرة على محتوياته. كان الصندوق يحتوي على حمالات صدر سوداء اللون. حمالات كثيرة تملأ الصندوق حتى حافته وكلها مُتماثلة. شعرت بإثارة شديدة.

وضعت الغطاء برفق وحاولت فتح غطاء صندوق آخر، لكنني شعرت بأحد العاملَيْن يخرج إلى الصالة فتركته وخرجت هابطًا السلم.

قابلت أختي على السلم وكانت صاعدة بصندوقين آخرين. سألتني: أين كنت؟! تجاهلت السؤال واستمررت في نزول السلالم إلى السيارة. كانت مدام سونيا لا تزال واقفة بالأسفل. حملت صندوقين آخرين وصعدت بهما. مرة أخرى قابلت أختي وهي هابطة هذه المرة، وكانت تنظر لي نظرة تنم عن استيائها من الأمر برمته. واصلت الصعود ووضعت الصندوقين بجوار الصناديق الأخرى. اختلست النظر إلى العاملَيْن فوجدتهما يتحركان ما بين الصالة وغرفة النوم. خطر لي أن أنقل الصناديق بعيدًا عنهما إلى غرفة أخرى، وبالفعل أخذت في نقل الصناديق إلى غرفة أخرى خالية. بعد أن انتهيت وجدت أختي واقفة في الصالة بصندوقين آخرين وتتلفت باحثة عن الصناديق الأخرى. قلت لها إنني نقلت الصناديق إلى الغرفة الأخرى حتى لا تتعرض للسرقة وأخذت منها الصندوقين بينما عادت هي إلى هبوط السلم. دخلت الغرفة وتأكدت أن أحدا لا يراني وفتحت أحد الصناديق.

فوجئت بأن الصندوق مليء بالسلاحف! لا، إنها ليست سلاحف، بل أصداف سلاحف فارغة! تعجبت

جدًّا. فتحت صندوقا آخر فوجدته مليئا بالقواقع البحرية الفارغة. الصندوق الثالث كان به مجموعة من الثمار الحمراء المستديرة. تُشبه الرمان لكنها أصغر كثيرا ولا أعرف ما هي. فتحت صندوقًا آخر فكان الصندوق الذي يحتوي على حمالات الصدر السوداء. مددت يدي وأخذت واحدة وطويتها عدة مرات ودسستها في جيبي. لا أعرف لمَ فعلت هذا، فلم أعهد نفسي سارقا، لكني رغبت في هذا الأمر بشدة ولم أستطع منع نفسي. واصلت تفحص باقي الصناديق بسرعة. رفعت غطاء صندوق آخر فوجدت مجموعة من الكتب القديمة المهترئة ذات الأوراق الصفراء المتربة، وكانت مُجلدة بشكل يدوي، ويبدو أنها فقدت أغلفتها الأصلية. التقطت الكتاب الأول وكان غلافه أبيض بلا أي كتابة، فتحت الغلاف فقرأت العنوان مكتوبًا على الصفحة الداخلية الأولى بخط اليد: «منبع أصول الحكمة». الكتاب التالي كان يحمل عنوانه على الغلاف: «شمس المعارف الكبرى». كتاب شبه مُمزق كُتب عليه بخط اليد: «غاية الحكيم»، أسفله عدة كتب مكتوبة بلغة غريبة لم أستطع أن أقرأها. تبدو كالإنجليزية لكنها ليست الإنجليزية. هل هذه اللاتينية؟ ما هذه الكتب الغريبة؟

أعدت إغلاقَ الصندوق وفتحت صندوقا آخر

فوجدت به جُمجمة! مددت يدي وأخرجتها من الصندوق. إنها جمجمة حقيقية! أرعبني ملمس العظام الآدمية في يدي. أفلتُّها من يدي فسقطت بعنف على البلاط وتهشم جزء من مقدمة الرأس ومفصل الفك السفلي. جمعت أجزاء الجمجمة وأنا أرتجف ووضعتها مُسرعًا في الصندوق وأعدت إغلاقه ثم هرولت خارج الشقة. دخلت شقتنا التي كان بابُها مفتوحا بينما أمي في المطبخ. أغلقت على نفسي باب غرفتي وأخذت أرتجف. كان عقلي قد توقف عن التفكير. أعوم وسط فراغ أبيض. امتزج بداخلي رعبان: رعب الجمجمة الحقيقية التي أمسكتها بيدي، ورعب تحطُّم الجمجمة، تلك الجريمة التي ارتكبتُها حالا، والعقاب الأسطوري الذي سأحصل عليه إذا اكتُشِف أنني الفاعل. تذكرت الآن جريمتي الثالثة: حمَّالة الصدر المسروقة. أخرجتها من جيبي بسرعة ودسستها أسفل المرتبة. ذهبت إلى الحمام وأخذت أغسل يديَّ مِرارًا لأخلصها من أثر تلك العِظام الآدمية. سمعت صوت أختي قادمًا من الشقة المقابلة وهي تنادي عليّ باحثة عني. تجاهلت نداءاتها. خرجت إلى الشرفة لأنظر. رأيت أبي واقفا معها بالأسفل مُرحبًا بها بشكل مُبالغ فيه. كان مُبتسمًا على غير عادته معنا. رأيته في رأسي على هيئة كلب واللعاب يسيل من بين شدقيه!

٣

لم أعد إلى المساهمة في إصعاد الصناديق. دخلت في سريري وتلحفت بالغطاء. جاءت ماجدة تبحث عني. قلت لها إنني مُتعب جدًّا ولن أواصل حمل الصناديق. ظهر الغضب على ملامحها، ثم لم يلبث أن تحول الغضب إلى دهشة. سألتني بقلق: لماذا ترتجف هكذا؟ ماذا بك؟

في تلك اللحظة انتبهت إلى أنني أرتجف! وإذ انتبهت لهذه الحقيقة زاد ارتجافي حتى صارت أسناني تصطك! تضايقت من نفسي إذ تركتُ الخوفَ يسيطر عليَّ بهذا الشكل. الأمر تافه. إن اكتشفْتُ أن الجمجمة مكسورة فربما كان الكسر قد حدث بسبب عملية النقل، وليس لأنني فتشت حاجياتها. لكن.. إنها جمجمة حقًّا، وقد أمسكتها بيدي! وهنا عاد الخوف ليسيطر عليّ مرة أخرى. مَن هذه المرأة؟ ولماذا تحتفظ بجمجمة إنسان حقيقية وأصداف سلاحف والكثير من الأشياء الغريبة؟!

قلت لأختي أن تتركني الآن فأنا مريض. خرجت أختي لتدخل أمي، وبعد الكثير من الـ«ما بك؟»، والـ«لا شيء»، اقتنعتْ أخيرًا أن تتركني وشأني لأنام

قليلا، على أمل أن أتحسّن عندما أستيقظ.

بالطبع لم أستطع النوم، بل لم أحاول أن أفعل. قمتُ من السرير وأخذت أراقب الأمر من النافذة. كان العاملان يُساعدان في إصعاد الصناديق، وقد بدا أن المهمة أوشكت على الاكتمال. أما أبي فكان لا يزال واقفًا معها، وكان صوتُه يصل إليّ في الأعلى وهو يقهقه، الأمر الذي استغربته من أبي.

إن أبي ليس إحدى شخصيات نجيب محفوظ مزدوجة الشخصية، المتحفظ القاسي على أهل بيته، المُنفلت أخلاقيا خارجه، فهو مُتجهّم طوال الوقت، داخل البيت وخارجه، أو هذا ما كنت أظنه فيه، فلربما كان له وجهٌ آخر لا أعرفه.

* * *

في اليوم التالي كانت مدام سونيا مَدعوّة لدينا على الغداء، على سبيل الترحاب بالجارة الجديدة.

لم تكن أمي مُتحمّسة، وكانت متضايقة من ذلك الواجب الجديد الذي فُرض عليها باستضافة مستأجري الشقة، الأمر الذي لم يكن مفروضًا عليها عندما كانت الشقة تؤجَّر للشركات التجارية، لكنها لم تكن لتخالف أوامر أبي وفرماناته. أما أنا فكنت

خائفًا جدًّا من هذا اللقاء، ولا أعرف لمَ كنت أشعر بأنها ستكتشف مسألة حمالة الصدر التي سرقتها بمجرد أن تنظر إلى وجهي. أعدّت أمي عدة أصناف من الطعام، وقد حُدّد الموعد المرتقب في وقت عودتنا ـ أختي وأنا ـ من المدرسة.

عُدت من المدرسة لأجد أن أختي سبقتني ووصلت قبلي، وكانت أمي قد بدأت في ترتيب المائدة ووضع الأطباق. وجدتُ أبي في المنزل هو أيضًا، ورأيتُه يُساعد يساعد أمي على غير عادته. غسلت وجهي وغيرت الزي المدرسي بآخر مناسب، وجلست أنتظر. إن سونيا تسكن في الشقة المقابلة وليس هناك ما يدعو إلى التأخير، إلا إذا كانت من النوع الذي يقضي نصف اليوم أمام المرآة. لحُسن الحظ لم يطل الانتظار، فقد دق جرس الباب. طلب مني أبي أن أفتح.

فتحت الباب وكانت مدام سونيا بالفعل هي الطارقة، تسمَّرت في مكاني وأخذ قلبي يدق بعنف.

كان شكلها مُختلفًا مع الماكياج الثقيل الذي تضعه، والذي جعل وجهها أكثر شحوبا، وشفتيها أكثر حُمرة، بينما منح الكحل الأسود الثقيل عينيها أعماقا أخرى. ومثل الأمس ارتدت فستانا أسود، لكنه فستان قصير جدًّا، لا يكاد يغطي ربع فخذيها،

وأنا كنت أقف أمام الباب قريبا منها. أنا قصير القامة مقارنة بها، فكان وجهي في مواجهة صدرها، وكان الفستان قصيرا أيضًا من أعلى إذا صحّ هذا الوصف، وهو وصف عبثي بالطبع لكني لا أعرف كيف يمكن أن أصف الأمر! استطعت أن أميّز طرف حمالة الصدر السوداء وهي تبرز أعلى الفستان، وكانت مطابقة للحمالة التي سرقتها وتوجد الآن أسفل مرتبتي.

بالونتان مملوءتان بالماء تبرزان أعلى صدر الفستان، تهتزان وتتموجان مع أقل حركة. تكوران وفيران بديعان قادران على إصابة مَن يراهما بالجنون المُطبق.

«ألن تدعني أدخل؟».. سألَتْني فرفعت عينَيَّ إلى عينيها، وقد أخجلني أنني انتبهت فجأة إلى أنني أطلت التحديق في صدرها. أفسحت لها الطريق دون أن أتكلم. كان قلبي لا يزال يدق بعنف وقد خشيت إن تكلمت أن يخرج صوتي مهزوزًا.

كانت تحمل في يدها علبة شوكولاتة أنيقة سوداء وضعتها على الكونسول المجاور للباب ثم دلفتْ إلى الداخل.

كنت أنظر إليها من أسفل وكان بريق مصباح النجفة

الآتي من خلفها يصنع هالة براقة حول شعرها. بدت لي كقِدّيسة خارجة من أيقونة، أو لعلها ملكة، ملكة قديسة. لكن هذه الصورة لا تتفق وملابسها الفاضحة. حسنًا، إنها شيطانة مُتنكرة في شكل مَلِكَة قِدّيسة لها هالةٌ حول رأسها.

دلفت مدام سونيا إلى الصالة، فاندفع أبي يُسلم عليها ويُرحب بها، أما أنا فكنت واقفًا خلفها أحدق في ساقَيْها وفخذَيْها. نظرت إلى أمي فرأيت أعتى علامات الاستنكار على وجهها، أما أختي فكان فمها مفتوحًا فيما يشبه الذهول التام.

سلَّمتا عليها فيما يُشبه الوجوم، ثم دعاها أبي إلى الجلوس في الصالون. جلستْ وهي تشد طرف الفستان خلف فخذيها، ثم وضعتْ ساقًا على ساق، وبينما تفعل، هُيئ لي أنني رأيت سروالها الداخلي.

كانت انفعالاتي الداخلية قد بلغتْ مداها، وشعرت بخذلان تام وارتميت جالسًا على أحد الكراسي.

لعل انفعالاتي هذه لها ما يبررها. أنا ما زلت في الخامسة عشرة، وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها كل هذا اللحم الأنثوي الباهر رأي العين، وبكل هذا القُرب. أحاول أن أُبرر لنفسي ما أنا فيه. قراءاتي القديمة تُخبرني أن هذا شيء طبيعي فما

زلت صغيرا. لا، لقد كبرت، وكل هذا بسبب أنني كبرت وصِرتُ أنظر إلى كل شيء بطريقة مختلفة. أنا في سِنِيِّ المراهقة. لا أنا كبير ولا أنا صغير. أنا ملعون. أنا واقع في ثقب أسود ولا أعرف أين أنا. أنا مُرتبك. قلبي يكاد ينفجر من شدة النبض ورأسي يكاد ينشطر إلى نصفين. نهضت دون كلام ودخلت غرفتي.

جلست على السرير وكان تنفسي سريعا. أغمضت عيني وحاولت أن أطرد صورتها من رأسي. كان صوت أبي وصوت أمي يأتيان لي من الصالة، وكان الكلام تقليديا لا يزيد على عبارات الترحاب التقليدية المُكررة المعتادة. كانت الأمور مستقرة بالخارج، وشعرت أن انفعالي كان مبالغا فيه، وأنني يجب أن أعود لحضور اللقاء، وأن أسيطر على نفسي وعلى نظراتي بشكل خاص.

انتظرتُ حتى هدأتُ قليلا ثم خرجتُ إلى الصالة. كانت لا تزال تجلس بنفس الوضع في ذات الكرسي. جلست على أحد الكراسي وأنا أحاول أن أُثبت بصري على عينيها. لم يسألني أحد لمَ ذهبت أو لمَ أتيت، كأنني لم أكن سوى هباء منثور، كأنني هواء خرج ودخل.

بعد قليل دعاها أبي إلى الانتقال إلى طاولة السفرة

لتناول الغداء. وضعت يديها على ركبتيها وانحنت إلى الأمام وهي تنهض، وفي تلك اللحظة خشيت أن يخرج صدرها كله خارج الفستان. أعتقد أنها تعمدت فعل ذلك. أخذتْ تتحرك إلى طاولة السفرة بخُطى قصيرة حتى لا ترتفع تنورة الفستان إلى أعلى. سحب أبي لها كرسيا لتجلس، وهو أمر لم يفعله مع أمي من قبل قط، أو على الأقل لم يحدث وأن رأيته يفعل. نظرت إلى ملامح أمي وشعرت أن حريقًا سيندلع في البيت الليلة.

مضى عليّ الغداء وأنا أحدق في طبقي. كنت أختلس النظرات إليها من آنٍ لآخر، لكنها نظرات سريعة خاطفة لا تستغرق بضع ثوانٍ، وعلى مائدة الطعام كان صوت الملاعق هو الطاغي، لم يكن أحد يتكلم سوى أبي، وكانت سونيا تضحك من كل قلبها على كل قصة يحكيها، مع أن أيًّا من تلك القصص لم يكن مُضحكا حقًّا، وقد اكتفينا نحن الثلاثة ـ أمي وأختي وأنا ـ بالصمت العَبوس.

انتهينا من الطعام، فطلب أبي مني وأختي أن يدلف كل منا إلى غرفته للاستذكار. فعلنا كما طلب في صمت. أغلقت غرفتي خلفي وجلست إلى مكتبي. فتحت كتابًا لكني كنت أرى كل الصفحات بيضاء. أشعر بتشاؤم شديد.. شيء سيئ سيحدث.

٤

لم أستطع أن أنام طيلة الليل. كان ما رأيته اليوم يضعني في حالة من الإثارة الشديدة. ظللت أستعيد صورة فخذيها وهي تتحرك، وهي تجلس، وهي تقوم، وصدرها البارز من الفستان، وشفتيها المصبوغتين بلون الدم وهي تدس بينهما الطعام. كان هناك شريط سينمائي يتحرك فوق رأسي على سقف الغرفة. كلما انتهى الشريط بدأ يُعيد نفسه من جديد. كان العرض مُستمرًّا منذ دخلت إلى الفراش وحتى انبلاج نور الصباح، لم يتوقف للحظة، وكان شيئِي مُنتصبا طوال الليل حتى إنني شعرت بألم شديد.

كنت مُرهقًا جدًّا لدرجة أنني لم أقوَ على النهوض من السرير. أكاد لم أنم ولا للحظة واحدة. طيلة الليل وأنا أحاول أن أنفض صورتها من رأسي بلا جدوى. الشيء الوحيد الذي كان يتقاطع مع خيالاتها في رأسي هو صوت شجار يأتي من غرفة أبي وأمي، ولا يحتاج الأمر إلى كثير من الذكاء لأستنتج أن الشجار لا بد وأن له علاقة بها.

كان يجب أن أنهض للذهاب إلى المدرسة. أجبرت

نفسي على النهوض وخرجت من الغرفة.

اختلست النظر داخل غرفة أبي وأمي من فرجة الباب المفتوح. كانت أمي راقدة على ظهرها على السرير وعلى رأسها كمادات وأبي جالس إلى جوارها. دخلت عليهما الغرفة مندهشا. لقد كانت بصحة جيدة قبل أن نذهب للنوم!

- ماذا بكِ يا أمي؟

رد عليَّ أبي:

- إنها مريضة جدًّا. ألا ترى؟ أم أنك فقدتَ البصر أيضًا؟ ألا يكفيك عقلك المفقود؟

نفس أسلوبه المتهكّم المقيت الذي يجعلني أكرهه.

قالت أمي:

- لا تقلق. حرارتي مرتفعة قليلا. اذهب أنت إلى مدرستك.

- ألا تحتاجين إلى أي شيء؟

- لا تشغل بالك. اذهب أنت حتى لا تتأخر.

تركتهما وخرجت. ذهبت لارتداء ملابس المدرسة وخرجت من غرفتي لأجد أن أختي قد سبقتني إلى باب المنزل. على الكونسول المجاور للباب رأيت علبة الشوكولاتة السوداء التي أحضرتها مدام سونيا. كانت فارغة تماما. لم يتركوا لي شيئا، لكني لم أعلق، بل ولم أكن أرغب فيها. نزلنا معا. مَدرستانا قريبتان ونذهب إليهما مشيًا. سِرنا معًا قليلا ثم افترقنا. لم نتحدث أثناء المشي، ونحن نادرًا ما نتحدث أصلا. كلانا في سن المراهقة، ومن النادر أن تكون علاقة الإخوة معًا جيدة في هذه السن، أو ربما هذا هو ما أعتقده، فليس من الصواب أن أُعمِّم. نحن دائمًا الشجارِ على أتفه الأسباب وآراؤنا مُتضادة حول كل شيء، لذا وجدنا أن أفضل ما نفعله هو ألا نتعامل مع بعضنا البعض من الأصل. أنا أخوها وهي أختي ونحن نسكن في بيت واحد ولنا أب واحد وأم واحدة، لكننا في حالة حِياد تام كحالة سويسرا مع جيرانها.

مرّ عليّ اليوم الدراسي وأنا ما زلت في حالة من الذهول، وكان المدرسون يشرحون بينما فخذا مدام سونيا لا تُفارقان رأسي ومُخيلتي. كلما حاولت التركيز مع الشرح، تذكرت أن مصيري النهائي هو محل قِطَع غيار السيارات. سأفتحه صباحًا حتى موعد الغداء، ثم أغلقه وأذهب للغداء والقيلولة،

ثم أعود لأفتحه بعد الظهر حتى ساعة متأخرة من الليل، وهكذا دواليك. سأظل جالسًا فيه هكذا حتى أتعفن بين حوائطه أو أموت. بمَ سينفعني نيوتن أو فيثاغورث؟ وهل سيُغير مصيري أن أحفظ أيَّ محافظات الجمهورية هي التي يُزرع فيها الأرز، وأيها التي يُزرع فيها البنجر؟

أما أنا فكنت أتمنى أن أصبح ضابط شرطة. أرتدي بدلتي البيضاء وكاب الرأس اللامع. أدخل من بوابة القسم فيهبُّ العساكر واقفين رافعين أيديهم بالتحية. تلاحقني التحيات مع كل خطوة ويناديني الجميع بـ«يا باشا». أجلس إلى مكتبي ويقف المتهمون أمامي يرتجفون ويكادون أن يُقبلوا الأرض بين قدمَيَّ. أُلقِي الأسئلة فيجيب المتهم على قدر السؤال، وإذا حاول المتهم أن يلف ويدور تهبط صفعة كالصاعقة على قفاه من المُخبر الذي يقف خلفه، يتلوها شلوت في مؤخرته مع أمر من المُخبر بأن يرُدّ بأدب على الباشا. سيكون لديّ مُخبر خصوصي له كفّ بحجم قدم إنسان وبصلابة قبقاب. أما إذا كان حظي حسنا أكثر، أو إذا كانت لديّ بعض الوساطات في الوزارة كأبناء اللواءات لاستطعت نقلَ نفسي إلى مباحث الآداب، ولعل هذه ستكون أسهل وأمتع مهنة في الوجود. ستوفّر لي مهنتي تعامُلا مباشرا مع الراقصات والساقطات

والزانيات ومُسجلات الآداب. سأُوقِف الواحدة منهن أمامي بملابسها الخليعة لأؤنبها وأوبخها على أفعالها. ربما تعرض عليّ الواحدة منهن رشوة جنسية كي أتركها وشأنها ولا أفضحها أمام أهلها ومعارفها. ستمتزج توسُّلاتها بدموعها وقد تُعري نفسها وتعرض عليّ جسدها، لكني لن أقبل طبعًا لأني لا أريد أن أرتكبَ المعاصي. هناك أيضًا المتعة الكبرى عند اقتحام بيوت الدعارة. سأُعطِي تعليماتي عندها بإطفاء صوت سارينات سيارات الشرطة كي لا ينتبه المُذنبون فيهربوا عند سماع السارينات كما يحدث في الأفلام. سنتحرك في صمت تام وسنطرق الأبواب كزبائن عاديين، وعندما يفتحون ستقتحم القوة الأمنية الشقة تحت قيادتي وتوجيهاتي. سندخلها غرفة بعد أخرى، فينتفض الزناة من الأَسِرّة ويحاولون ستر عوراتهم بأي شيء بينما يتحول صراخ البنات إلى سارينات. سأوقفهم أمامي عُراة في منتصف الغرفة لإثبات الحالة وكتابة المحضر، وستكون الفتاة منهن في حيرة شديدة بين إخفاء ثَديَيْها أو فَرْجِها أو مُؤخرتها، وستتمنى الواحدة منهن لو كان لديها أربع أذرع لتتمكن من ذلك. سأكتب كل التفاصيل في المحضر وسأجمع الأدلة بنفسي وأتحفظ على الملابس الداخلية. سينهال المُخبرون عليهم ضربا وصفعا ليتأدبوا، وسأتركهم يتحرشون بالساقطات العاريات فهن يستحققن ذلك،

أما أنا فسأكتفي بإثبات الحالة وتحقيق العدالة. بعد المحضر سنقوم بلف المتهمين في ملاءات، ونقودهم حُفاة لنزول السلالم وركوب البوكس، وسأجعل البوكس يقف في آخر الشارع حتى أعطي الناس فرصة للفرجة عليهم ليكونوا عبرة لمن لا يعتبر، ثم نتوجه إلى القسم حيث تنتظرهم هناك حفلة أخرى من الضرب والتحرش.

كل هذا قد يحدث لو كان هناك عدل في العالم وكانت هناك فُرص متساوية أمام الجميع، لكن في حالتي البائسة فإن ذلك المحل الملعون ينتظرني لِيَلتَهِمَ ما سيتبقى من حياتي. البعض يُحقق العدالة ويعاقب الساقطات، والبعض يقبعُ مدفونًا بين قِطَع الغيار ولا يتعامل سوى مع عُمال ورش الصيانة الغارقين في العرق والشحوم. هل هذا عدل؟ وكيف إذن يمكن تحقيق العدل في هذا العالم؟

٥

لا أعرف كيف انتهى بي اليوم الدراسي أخيرًا. عُدت إلى المنزل، وقبل أن أصعد لمحت أبي في متجره أسفل العمارة. فكرت أن أمي لا بد أنها قد تحسنت؛ مما جعله يتركها وينزل. صعدت إلى الشقة وفتحت الباب. لم تكن ماجدة قد أتت بعد. اتجهت إلى غرفة أمي لأطمئن عليها. وجدتُ أمي لا تزال راقدة على السرير وكمادات الماء البارد على جبينها، وكانت مدام سونيا تجلس إلى جوارها!

تسمَّرتْ قدماي على باب الغرفة. كانت مدام سونيا ترتدي الأسود كعادتها، لكن هذه المرة كان قميص نوم منزليًّا! رأتني أقف على الباب فرفعت حمَّالة قميص النوم المتدلية على كتفها وشدت طرف القميص على فخذَيْها وهي تقول:

- ألا تطرق البابَ قبل أن تدخل يا ولد؟

ولد! كيف تتحدث معي هكذا؟ وما الذي أتى بها إلى هنا؟ ثم إنني لم أدخل الغرفة بعد من الأصل!

قالت أمي بصوت واهن:

ـ تعالَ يا ماجد. سلِّم على مدام سونيا. إنها مشكورة تعتني بي منذ الصباح.

دخلتُ ومددت إليها يدي وأنا أجاهد لتركيز بصري على عينيها. تصافحنا. لأول مرة تتلامس يدانا. كأنني أصافح قطعة من الثلج. فيها نعومة الثلج وبرودة الثلج. إنها مُبتلة كالثلج، بل لونها أقرب إلى الثلج. حتى يدي شَعَرتْ بالخدَر الذي قد يشعر به المرء إذا أمسك قطعة من الثلج. شعرت بالخدَر يمتد من يدي إلى ذراعي إلى كتفي فسحبت يدي بسرعة.

هنا تبخَّر خوفي من فتنتها الطاغية وحل محله رعب شامل ارتعدت له فرائصي. هذه المرأة بها شيء غير طبيعي، وقد كان الأمر واضحًا لي منذ رأيتها أول مرة.

نظرتُ إلى أمي في السرير فوجدتها غارقة في عرقها وكانت عيناها زائغتَيْن. ظلت تُردد كلمات شُكر لسونيا وتقول إننا أتعبناها كثيرا منذ طلب أبي منها العناية بأمي حتى يستطيع النزول إلى المحل، وكيف أنها لم تتردد في المساعدة، وأنها لم تفارقها لحظة منذ ذلك الحين، وأنها كانت تُطعمها وتسقيها بنفسها، وكيف أنها جارة رائعة لا تُعوَّض، وأن السماء قد أرسلتها نجدةً لنا. كانت أمي تهذي!

قالت لي سونيا:

- اذهب اغتسل الآن من تراب المدرسة.

مَن هذه حتى تعطيني أوامر؟ تجاهلتها وتحسست جبين أمي. كان باردًا كالثلج ومع ذلك كان جسمُها ينضح بالعرق. هل هذا طبيعي؟

- ألم أقل لكَ أن تذهب لتغتسل؟

هنا بدأتُ أشعر بالغضب فعلا. كنت أريد أن أردّ عليها ردّا حادّا يُوقفها عند حدّها، لكن منظر قميص نومها الأسود منعني! لقد جعلني أضطرب قليلا ففضّلت السكوت.

تركتهما وخرجت. نزلت إلى أبي في المحل. لحُسن الحظ لم يكن هناك زبائن. رأيته يجلس خلف الكاونتر وحوله قِطَع الغيار في كراتينها الكئيبة، وملأت أنفي رائحة المحل التي أكرهها، والتي هي مزيج من رائحة الصدأ والغبار.

- أمي مريضة جدًّا يا أبي.

نظر لي قليلا وقد شعرت لوهلة أنه استغرق وقتًا كي يستوعب أنني ابنه، وأنني أتحدث إليه!

ربما لديه حق؛ فأنا لا أدخل المحل إلا نادرًا جدًّا، كما أنني دائمًا ما أتجنب الحديث معه. لا بد أنه استغربني.

ردَّ أخيرا، وقد أحنقتني اللامبالاة التي يتحدث بها:

ـ لا تقلق. إن مدام سونيا تعتني بها.

ـ إن جسمها بارد كالثلج! كما أنني لا أثق في سونيا هذه. ثم ما الذي أتى بهذه المرأة إلى المنزل؟

ـ ولد! لا تتحدث عنها هكذا! اسمها مدام سونيا! ألم تتعلم بعض الأخلاق في مدرستك؟

ـ ليس هذا وقت تعليم الأخلاق الحميدة. أقول لك إنها مريضة جدًّا.

ـ أنا الذي طلبت من مدام سونيا أن تعتني بها. اذهب أنت لتستذكر شيئا ينفعك.

صرخت فيه، وكان مجرد الإتيان بسيرة المذاكرة قد جعل دمي يغلي:

ـ اصعد معي الآن حالا!

نظر لي باستغراب، ويبدو أنه أدرك فجأة أنني

كبرت. أنا أيضًا أخذت أنظر إليه، وربما لأول مرة أُدرِكُ أنه يُشبهني كثيرا، أو ربما أنا الذي أُشبهُه؛ إذا ازداد طولي قليلا وابيضَّ نصف شعري وأضيفت بعض التجاعيد إلى جبهتي لصِرتُ هو. وكأنني قفزت ثلاثين عامًا في المستقبل، رأيت نفسي جالسًا مكانه، لي نفس الشكل ونفس الملامح ونفس الهيئة، أجلس على نفس الكرسي في نفس المحل وحولي نفس البضائع، وكان الكاونتر أمامي مُلوثًا بنفس الشحوم، والمحل يعبق بنفس الرائحة، وتمنيت ألا تتحقق أبدًا هذه الرؤيا.

دون أن يتكلم قام وأطفأ النور وخرجنا معًا ليُغلق المحل، ثم صعدنا معًا إلى المنزل، وفي المنزل وجدنا أمي جالسة مُبتسمة على كنبة الصالون، وأمامها مدام سونيا التي شدت قميص النوم على فخذَيْها عندما رأتنا، وكان أمامهما فنجانان من القهوة!

تنحنح أبي ونظر إلى الأرض عندما شدت سونيا قميصها، وقد كان هذا فعلا غير ذا معنى، فلم ندخل إلا إلى بيتنا على أي حال، كما أن هذه المرأة لا تخجل أصلا. اتجه أبي إلى أمي وسألها إن كانت على ما يُرام.

- لم تكن يومًا أفضل من اليوم!

كانت مدام سونيا هي التي تطوعت بالرد، بينما احتفظت أمي بابتسامة بلاستيكية غريبة على وجهها.

شكرها أبي لعنايتها بأمي في غيابه، ثم التفت لي وقد عاد إليه غضبُه القديم وتجهمه المعروف، وأمرني بالدخول إلى حجرتي للاستذكار والالتفات إلى مستقبلي، ثم خرج وأغلق الباب.

بمجرد أن خرج أبي حتى تهاوت أمي على الأريكة. تلاشت ابتسامتُها في لحظة ومال رأسها إلى الأمام ليستند ذقنها على صدرها، كأن شيئا ما كان يضم أجزاء جسدها معا ويحافظ على تماسكها ثم غادرها فجأة. هببت أتفقدها وتحسست جبينها فوجدت حرارتها مرتفعة. لم تكن تتكلم أو تُبدي أي ردود أفعال.

- خائف على ماما يا روح ماما؟ اتركها لتنام قليلا فهي مُتعبة.

إنها تلعب معي لعبة نفسية قذرة. تعرف حالة التمرد ضد الأبوين التي يكون فيها المراهق في مثل سني. تُحاول أن تهوّن الأمر، لكنه ليس كذلك. هذه المرأة التي تحتفظ بجماجم بشرية وأشياء غريبة

ضمن حاجياتها وترتدي ملابس فاضحة بكل أريحية تُريد إيذاء أمي، وأنا لن أسمح لها.

قررت تجاهلها وحاولت إفاقة أمي فلم أفلح. لا بد أنها سقتها شيئًا ما. لعلها حضّرته باستخدام مُقتنياتها الغريبة. شعرت بالغضب يملؤني. كان منظر أمي المتهالكة على الأريكة يجعل الدم يغلي في عروقي، وأنا أرى المُعتدية الغاصبة أمامي دون أن أتصرف كما يليق بابنٍ، كما يليق برجل. أبي ليس هنا، وهو لن يساعدني بينما هو واقع في حبائل فتنتها؛ لذا قررت أن أتصرف. سأطردها من المنزل.

مدفوعًا بغضبتي المُفاجئة وشعوري بالمسئولية، استجمعتُ شجاعتي وتمالكتُ نفسي وأنا أنهض نحوها فجأة مُشيرًا نحو باب الشقة، صائحًا بها أن تخرج من البيت.

- ولد!

هكذا صاحتْ بي وقد عقدت حاجبيها في غضب مُرسلة نظرة نارية شعرت بها تخترقني. نظرة ذات سُخونة حقيقية شعرت بها تدخل من عينيَّ وتهبط عبر أوردتي إلى أسفل جسمي. لأول مرة أعرف أن النظرات الغاضبة لها حرارة حقيقية، وقد أرعبني هذا الشعور.

فجأة انفتح باب الشقة ودخل أبي. كان غاضبا هو الآخر وكان الشرر يتطاير من عينيه.

صاح:

- كيف تجرؤ يا ماجد؟! كيف تجرؤ أيها الكلب؟! أيها الفاجر الصغير!

وأنا وقفتُ مذهولا. كيف عرف بما حدث؟ هل كان يقف خلف الباب؟ هل يتنصت على ما يحدث في البيت بكاميرا مُراقبة في المحل؟ ولو كان هذا صحيحا كيف صعد بهذه السرعة؟ أم لعلها أخطرته بما حدث بشكل ما؟

أخذ أبي يُرغي ويُزبد ويسب ويلعن سوء أخلاقي وسوء تصرفي، مستدعيا فشلي الدراسي وكل نقيصة توجد في حياتي، جالدًا إياي بكلام جارح كسِياط منقوعة في الزيت. أردت أن أحاجّ بحالة أمي لكني التفتُّ إليها فوجدتها تبدل نظرها بيننا في حيرة! ابتلعت لساني ولم أرغب في استفزازه أكثر. تركتهم جميعا ودخلت إلى حجرتي، وصفقت الباب خلفي بشدة حتى سقط جزء من الملاط أعلى الباب. استمر سِباب أبي يأتي من خلف الباب، وكنت ما زلت أشعر بسخونة تحت جلدي كأنه يحترق. اندسست في السرير تحت الأغطية وأخذت أرتجف. هذه المرأة

غير طبيعية على الإطلاق.

تذكرت الكتب التي وجدتها لديها. أنا لست غبيًّا. هذه كتب سِحر. لو لم تكن تقرأ هذه الكتب على سبيل التسلية، ولو كان هناك سِحر حقًّا في هذا العالم، فهذه المرأة لا بد وأن تكون ساحرة.



٦

ظللت مُلازمًا غرفتي حتى نهاية اليوم. لم أخرج منها على الإطلاق. لم أتناول غداءً ولا عشاءً، وكنت أختلسُ السمع من حين لآخر من خلف الباب، فشقتنا مُخططة على الطريقة القديمة التي تُفتح فيها أبواب الغرف على الصالة مباشرة، بدون ردهة تحمي خصوصية الغرف. عرفت أن سونيا ستبيت معنا اليوم لترعى أمي ليلا. لم أعرف مَن صاحب هذا الاقتراح، لكني بالطبع لم أشعر بارتياح، وانتابني إحساس أن العالم سينهار قريبا من حولي.

سينام أبي على كنبة الصالة، بينما ستنام سونيا مع أمي لتعتني بها. مرّ عليّ الوقت مرورا مريرا ما بين خوفي على أمي، وغضبي من أبي، ورُعبي من سونيا التي توقفتْ عن أن تُمثل لي أي شيء مُثير. لم يعد نهداها وفخذاها يُراودوني في أحلامي كالسابق، بل صِرت أخاف وأنفر من كل ما يخصها. قطعة من الفراولة مغموسة بالسم. تفاحة مليئة بالديدان. تورتة محشوة بالصراصير.

فجأة تذكرت حمّالة صدرها المُخبأة تحت المرتبة، والتي لم أتذكرها منذ خبأتها سوى الآن. لا أدري

لمَ فعلت هذا، وكيف اتخذت هذا القرار في لحظة. ربما كان انبهاري بها قد أعماني فأردت الاحتفاظ بشيء يخصها. لعلي أردت استعمالها في فانتازياتي وخيالاتي الجنسية. الآن أشعر بأن الحمَّالة تؤلمني في ظهري وهي تحت المرتبة، مثلما كانت الأميرة الرقيقة تتألم من حبة البسلة في قصة الأميرة وحبة البسلة.

كنت قد تعبت من التحديق لساعات في مروحة السقف التي تدور ببطء على السرعة رقم ١، حتى كادت تُصيبني بالحَوَل، لكنها كانت تساعدني في تشتيت أفكاري كي لا أُجَن. الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل ولا بد أن جميع من في البيت ناموا. الجوع يقرصني بعنف. قررت أن أتسلل على أطراف أصابعي لأتناول شيئا ما من المطبخ. لا بد أن أبي ينام الآن على الكنبة.

أطفأتُ ضوء الغرفة ووقفت حافيا خلف الباب. أمسكت بالمقبض وأخذت أُحرِّكه ببُطء شديد، إلى أن خرج لسانُ القفل من الثقب المقابل في إطار الباب. تَمّت العملية بنجاح وبلا صوت. بقي أن أسحب الباب ناحيتي شيئًا فشيئا دون أن تُصدر المفصَّلات صوتًا. أخذت أفعل ذلك بحرص. لا أريد أن أوقظ أبي أو أن أصطدمَ معه، وأريدُ

أيضًا في نفس الوقت أن أحافظ على صورة الفتى «المقموص» المسكين الممتنع عن تناول الطعام. من فرجة صغيرة تكوّنَتْ بدأتُ أميز الموجودات في الصالة على ضوء مصباح الشارع الذي يتسلل عبر النافذة. اعتادت عيناي على الظلام وبدأت ألاحظ حركة في نهاية الغرفة. إنها سونيا واقفة في ركن الغرفة وكان أبي يلتصق بها من الخلف!

كان جسمي يرتعش الآن بالكامل. أبعدت نظري عن المشهد فورا، وأخذت أغلق فرجة الباب كما كانت ببُطء مُحاولا ألا تؤدي ارتعاشة يدي إلى إفساد الأمر برمته. انغلق الباب أخيرا بتكّة خافتة. ربما سمعاها وربما لا. لا أعرف ولا أهتم. ألقيت نفسي على السرير مُنهارًا من الصدمة ومن الجوع. كنت مُنهكًا جسديا ومُنتهكًا عاطفيا. تحطمت تمامًا من الداخل، كأن أعضائي الداخلية مصنوعة من زجاج وقد حطمها حجر طائش، والآن تتناثر شظاياها في كل مكان داخلي. لم يعد بي شيء سليم سوى الجلد الخارجي.

٧

استيقظت متأخرا في اليوم التالي فلم أجد أحدًا في المنزل. لا أبي ولا أمي ولا أختي، وبالطبع لا سونيا. فاتني موعد المدرسة وقد تعجبت أن أحدًا لم يحاول أن يوقظني. خرجت إلى الشرفة وحاولت النظر إلى المحل أسفل البناية فلمحت القفل الأرضي الذي يغلق صاج الباب الخارجي. المحل مُغلق وأبي أيضًا لم يذهب إلى العمل!

تذكرت المشهد الذي رأيته بالأمس فاقشعر جلدي. هززت رأسي بقوة كأن هذا يمكن أن يمحوه من ذاكرتي. لم أرِد الاتصال بأبي بعد شجارنا أمس وبعد ما رأيته. لا أدري ماذا أفعل. فتحت الثلاجة لأبحث عن شيء آكُله. كنت جائعا جدًّا. أكلت علبة جبن كاملة مع رغيفين! هذا نحو أربعة أضعاف ما آكل عادة، لكن الجوع كافر!

هناك أيام تكون أسوأ من غيرها، وهناك أيام لا يمكن مقارنتها بأي أيام أخرى من فرط سُوئها. أمس كان أحد تلك الأيام، ولديَّ شعور أن اليوم أيضًا سيكون أحدها. أخذت أدور حول نفسي في المنزل لا أعرف ماذا أفعل. كان القلق ينهشني. لعل أمي

ليست بخير. بل أكاد أجزم أنها ليست بخير. دائمًا ما أتوقع الأسوأ، ودائمًا ما تصدُق توقُّعاتي.

قد أبدو كئيبًا مقارنة بفتى في الخامسة عشرة، لكن حياتنا في مصر - خاصة لمَن كان ذا طاقة كمَن في مثل عُمري - لا تبعث سوى على الكآبة. لا توجد أي وسائل لتصريف الطاقة. مدارسنا بائسة لا نمارس أي نوع من الأنشطة.. لا موسيقى، لا رياضة، لا فنون. كل شيء - عدا حفظ الدروس الغبية التي يُلقِّنوننا إياها - هو شيء ثانوي ومُهمّش وممنوع. إنهم حتى توقفوا عن تلقيننا الدروس في المدارس ويعتمدون على أن الجميع يذهب للدروس الخصوصيّة. المدارس هي مجرد أماكن للتعذيب بقضاء أوقات مُملة وقاسية كالجحيم، ثم مع أبٍ قاسٍ ومتحجّر في المنزل مثل أبي تُصبح الحياةَ أسوأً وأسوأً. ما يُعزز لدينا هذا الشعور هو الانفتاح الذي صار فيه العالم بعد انتشار الإنترنت، واطِّلاعنا على الحياة التي يحياها أقراننا في الدول المتقدمة. نحن لسنا أحياء أصلًا. نحن مَوتى نمشي ونتحرك على الأرض.

ظللت أتحرك في الشقة جيئة وذهابا لا أدري ماذا أفعل، وكانت الساعة قد اقتربت من الواحدة ظُهرًا. سمعت صوت مفتاح يتحرك في قفل باب الشقة، ثم انفتح الباب ودخل منه أبي وسونيا!

كانت سونيا تتأبط ذراعه. دخلا فألقى أبي مفاتيحه على الطاولة وعلقت هي حقيبة يدها على مقبض الباب! جلسا على الأنتريه كأي زوج وزوجة عادا مُتعبين من الخارج، أما أنا فوقفت مذهولا.

سألت:

- أين أمي؟

رد أبي:

- في المستشفى.

- ماذا حدث؟

- يقول الطبيب إنه هبوط في الدورة الدموية وستظل فترة تحت الملاحظة.

كنت أنظر إليهما ودمي يغلي من الداخل، حتى صِرتُ أشعر بالحرارة تتصاعد إلى رأسي وبالعَرقِ يتفصَّد على جبيني. كانت صورتهما معًا أمس لا تفارق خيالي. يا لأمي المسكينة!

- ستمكث معنا مدام سونيا لتعتني بك وبأختك إلى أن تتعافى أمك. عاملها مثل أمك تمامًا ولا تعصِ

لها أمرًا.

هذه الساحرة الداعرة ستحل محل أمي! وعليّ أن أطيعها ولا أعصي لها أمرا! هذه المرأة هي التي أصابت أمي بالمرض. لا أعرف كيف، لكني مُتأكد من هذا!

صِحت:

- لا!

كنت أرتعش من الغضب.

- كيفَ تطلبُ مني أن أطيع هذه المرأة التي سمّمت أمي؟ وكيف تجرُؤ على العودة بها إلى المنزل بينما تترك أمي وحدها في المستشفى؟ ألا تخجل من نفسك؟

ثم التفتُّ إلى سونيا صائحا:

- اخرجي من المنزل فورا!

كان أبي في حالة من الذهول. لم يحدث أن تحدثتُ معه بهذه الحِدّة من قبل. لعلّي أهنتُه بكلامي.

أخيرا نفض ذُهوله ونطق:

ـ هل جُننت؟ كيف تتحدث بهذا الشكل أيها الكلب؟ اعتذر لمدام سونيا فورا!

ـ لن أعتذر لهذه الداعرة!

فغر أبي فاه ذاهِلا، وبدا في حالة من عدم التصديق وكأنه لا يصدق أن هذا هو ابنُه حقًّا، أما سونيا فلم تحاول التدخل في الحوار، وكانت ابتسامة ساخرة تلتمع في عينيها.

ـ قلت لك اعتذر فورًا!

ـ قلت لك لن أفعل، بل وسأخرجها من المنزل بنفسي!

هنا هُيئ لي أن لون أبي يتغير من شدة الغضب وأنه يمر بطور ما من التحول، وكأن دكتور جيكل يتحول إلى مستر هايد، أو بروس بانر إلى الرجل الأخضر.

فكّ أبي حزام بنطاله وهو يحدق في عينيّ، وأخذ يلف الحزام حول يده حتى أصبح الحزام كالسوط وكان جُزؤه المعدني يتدلى منه واعدًا إياي بضربات مؤلمة. كان وجهُه أحمر وعيناه حمراوَيْن والعرق يفصد من جبينه ويداه ترتعشان، حتى أشفقت عليه وشعرت أنه سيصاب بنوبة قلبية ويسقط ميتًا فجأة.

لكني أبدًا لم أتوقع أن يضربني. توقعت أن يكتفي بالتلويح والتهديد كما يفعل عادة، لكنه فجأة اندفع ناحيتي وهوى عليّ بالجزء المعدني من الحزام. تلقائيا قفزت إلى اليمين متفاديا الضربة، فاصطدمتْ حلية الحزام بالحائط صانعة فيه حفرة صغيرة. فزعت من قوة الضربة التي وجهها لي أبي. لم أتخيل للحظة أن يحاول أن يضربني بهذه الشدة. الضربة التالية أصابتني في كتفي اليُسرى. كانت حفرة الحائط قد أفقدتني حذري للحظات مما جعلني لا أنتبه للضربة. صرخت من شدة الألم وسقطت على الأرض. هوى بالحزام مرة أخرى لكني تدحرجت على البلاط بسرعة وقفزت خارجا من الغرفة. خرج خلفي وأخذ يضرب بالحزام بشكل عشوائي في كل مكان، حتى إنه حطم جهاز التلفزيون في إحدى ضرباته الطائشة. لقد فقد عقله تماما! كانت ضرباته العنيفة والمجنونة تُدوّي في أرجاء الشقة، بينما فتحت أنا باب الشقة وهرولت على السلم هاربا إلى الشارع ودموعي تسيل على خدّيَّ، والألم المبرح ينبض في كتفي. أخذت أهرول حتى خرجت إلى ميدان سفير. نظرت خلفي فلم أجده. لقد جُنّ أبي. لعله يحطم باقي محتويات الشقة الآن. التفتُّ إلى الميدان. كانت الشوارع مُزدحمة بالسيّارات، والناس يَروحون ويجيئون. يأكلون ويشربون ويتسكّعون ويضحكون. كان العالم يتحرّك ويمضي دون أن يهتمّ أو حتى

يعرف شيئًا عن مأساتنا الشخصية.

٨

ظللت جالسًا على محطة المترو لفترة طويلة لا أدري ماذا أفعل. هذه المرأة! هذه الساحرة! أردت طردها من البيت فانتهى بي الأمر مطرودًا منه! إنها تربح دائمًا ولا تخسر أبدا. أبي كان يريد أن يُحطم عظامي. كان يريد أن يقتلني. كيف وصل الوضع إلى هذه الحال؟ لعله ليس في وعيه. لعلها تسيطر على تفكيره بشكل ما. أبي قاسٍ وثقيل الظل لكن تصرفه اليوم لا يتناسب مع شخصيته. إنه ليس حنونًا لكنه ليس خائنًا. إنه مدمن عمل وليس مدمن ملذات. هذا ليس أبي الذي أعرفه. لقد غيّرَتْ فيه شيئا ما ولا أعرف كيف.

فجأة انتبهت إلى أنني أجلس بالبيجاما المنزلية في الشارع! خجلت من نفسي وأردت العودة إلى المنزل، لكن كيف العودة وأين السبيل؟

كانت الشمس قد بدأت تميل للمغيب، وأنا جالس بوضعي هذا على محطة المترو، أراقب الناس وهم يأتون ويذهبون. أحيانا أنشغل تماما بمراقبة حركة البشر والسيارات حتى إنني أنسى مشكلتي الشخصية، أو ربما كنت أتعمد أن أنسى لأن عقلي

عجز عن التفكير. لحظات النسيان هي لحظات راحة حقيقية. بمجرد أن أتذكر مَن أنا وماذا أفعل هنا حتى ينقبض قلبي ويغوص في مكان ما بداخل أحشائي. ساقاي لا تتحركان، لا تريدان القيام للمواجهة. كأنني مشلول. أخاف أن أبادر بتحريك قدمَيّ فأكتشف أنني مشلول فعلا. لعلي أتمنى أن أُصاب بالشلل حتى أهرب من المواجهة. أخيرًا أبادر بتحريك قدمي فتتحرك. وجدت آسفًا أنني لم أصب بالشلل، وقد أحزنني هذا. أنهض من مكاني وأستدير قافلا إلى المنزل. أجرجر قدميّ لاعنا حظي الذي يحرمني حتى من حجة أتهرب بها من اتخاذ القرار. لقد صار المستقبل مُظلما ولم أعد أعرف أو أفهم ماذا يحدث. ماذا سأفعل الآن؟

عُدت إلى البيت كأنني أعود إلى مُعذِّبي، كأنني أقول له اضربني أكثر. آسف لأنني لم أسمح لك بأن تضربني بشكل كافٍ. اضربني وأهِنّي لكن لا تطردني، فأنا لا أعرف إلى أين أذهب.

رفعت يدي لأطرق الباب، لكنه انفتح قبل أن أفعل، وكانت مدام سونيا هي التي فتحت!

واقفة أمام الباب، بادرتني بلهجة جافة:

ـ ماذا تريد؟

لم أعرف كيف أرد! لكني قررت أن أرد وقد عادَ الغضب إلى التصاعُد داخلي.

ـ أريد أن أدخل! هذا بيتي على أي حال!

ـ لم يعد لديك بيت هنا. يا لكَ من صفيق! كيف تجرؤ على العودة إلى هنا بعد ما فعلت؟

هذه المرأة تلعب معي لعبة قذرة! بعد ما فعلت! وماذا فعلت؟ أنا لم أفعل شيئا! تُذكّرني بمدرس الرياضيات الذي ينسى أن يُكلفنا بالواجب ثم يلومنا على عدم أدائه.

لمحتُ أبي من خلف ظهرها، كان يجلس على كرسي الصالون مُعطيا ظهره للباب، وكان منهمكا في مشاهدة التلفزيون المفتوح على فيلم كارتون قديم.

صِحت:

ـ أبي!

لا استجابة على الإطلاق. إنه يشاهد الفيلم بتركيز شديد وكأنه طفل مُنبهر يرى الملاهي لأول مرة.

ـ قلت لك اذهب من هنا الآن، وإلا سيحدث لك ما لا تُحمد عقباه.

ـ لن أذهب! هذا بيتي!

ـ اذهب قبل أن أفضحك أيها اللص الداعر.

ـ لص؟!

مدت يدها من خلف ظهرها ورفعت أمامي حمَّالة صدر سوداء! إنها جريمتي الصغيرة التي خبأتها تحت المرتبة والتي كِدتُ أنسى كل شيء عنها! شعرت بخجل شديد وهي تُلوح بها أمام وجهي.

ـ والآن ماذا ستقول عنك أمك أيها الفاجر؟ ماذا سيقول عنك أبوك أيها اللص؟ ماذا سيقول مُعلّموك في المدرسة؟

شعرت أنني فأر مُحاصَر في ركن غرفة مغلقة مليئة بالقطط. شعرت أن العالم ينهار من حولي.

ـ حسنا، وأنا سأبلغ عنكِ الشرطة. سأخبرهم عن الجماجم والعظام البشرية التي بحوزتك أيتها.. أيتها الساحرة!

ضحكَتْ بصوت عالٍ.

ـ حسنا. ما دُمت قد عَرَفت. سأنذرك مرة أخيرة. لم يعد لك بيت هنا. كل شيء الآن صار في حوزتي. اذهب ولا تعد إلى هنا مرة أخرى وإلا أريتك ماذا يمكن للساحرة أن تفعل. سأحولك إلى كلب كما كان والدك ينعتك دائمًا!

ـ لا تستطيعين! أنا لست خائفا منكِ!

قلتها وأنا خائف جدًّا حتى إن صوتي كان يرتعش بشكل واضح!

ـ لقد حَكَمْتَ على نفسك!

فجأة رسمتْ بيدها دائرة في الهواء أمام وجهي وهي تتلفظ بألفاظ غريبة.

لمحتُ وميضًا أخضر غشّى عينيّ. في اللحظة التالية رأيت ظلاما دامسا وظننت أنني فقدتُ البصر، ثم انطلق ألم حاد مُمض يطعنني في كل خلاياي. شعرت وكأن ملايين السكاكين الصغيرة تنغرس في كل خلية من جسدي. كل عضلة. كل عظمة. كل عصب. لحُسن الحظ لم تستمر طعنات السكاكين سوى لثانية أو ثانيتَيْن ثم توقفَت، لكنني كنت قد انهرت على الأرض من الألم، كأن قطارًا مرَّ فوقي

وتركني. كانت كل خلية في جسدي ترتعش، وبدأ الظلام ينقشع لكن كل شيء كان باهتا. استجمعت شجاعتي ودفعت نفسي بكل قوتي كي أقف ثانية ورفعت رأسي إليها فرأيتها قد ارتفعت جدًّا وكأنها تقف فوق طاولة. كان وجهي مُقابلا لرُكبتيها.

تعجبت جدًّا. كنت في حالة من عدم التوازن وعدم التصديق. كنت شبه فاقد للإدراك، وكل خلية من خلاياي تصرخ من الإنهاك. تجمَّع كل الوجع فجأة في رأسي فصرخت صرخة مريعة ككلب يعوي. ليس ككلب ولكن حقًّا كان هذا صوت كلب الذي خرج من حنجرتي. نظرت إلى أسفل فإذا بي أرى قائمتَيْ كلب. أخذت أرمش مرات عديدة لكن المشهد لم يتغير، وكانت لا تزال تقف أمامي بردائها القصير وهي تبتسم بتهكُّم. كان رعب الدنيا ينسكب من عينيّ وأنا أحدق فيها من أسفل. أنا.. كلب!

سبَّتني سبة بذيئة وركلتني بحذائها في وجهي. عويت في ألم. صرخَتْ فيّ: «امشِ من هنا!». اندفعت إلى السلم فتعثرت فيما بدا لي أنها الملابس التي كنت أرتديها وكانت مكوّمة أسفلي على الأرض. اصطدم رأسي بالحائط. نهضت وسقطت أتدحرج على السلم أتلقى عشرات الصدمات في الحوائط ودرجات السلم. لا أعرف كيف وصلت إلى مدخل العمارة. كان جسمي يصرخ من الألم وكنت

أقوم وأتعثر، وأسقط وأقوم وأتعثر وأسقط، هكذا بلا نهاية. أدركت أنني غير مُعتاد على طريقة حركة الكلب وأنني صِرت كطفل يحتاج أن يتعلم المشي، لكني كنت طفلا مذعورا عليه أن يتعلم المشي في دقيقة واحدة وإلا انتهت حياته قبل أن تبدأ. استجمعت نفسي وآخر ما تبقى لديَّ من طاقة كي أستطيع الخروج من العمارة. حاولت أن أهدأ وأركز كل تفكيري على كيفية تحريك أطرافي الأربعة. نهضت وسقطت مرة أخرى. فكرت أن أزحف حتى أستطيع الخروج من الباب، واستطعت أن أفعل هذا فعلا.

كان الوقت ليلا وإضاءة الشارع ضعيفة، لكني شعرت أن الرؤية كانت أفضل. خِفتُ أن أنزل إلى الشارع فتصدمني سيارة وأموت كالكلب. لم أدرِ ماذا أفعل أو أين أذهب. مطرودا من بيت أبي وجدي. فقدت أسرتي وكتبي وأشيائي وكل ما أملك، بل وفقدت جسدي ذاته. أخذت أتحرك وأتعثر على الرصيف. سمعت صرخة أنثوية لفتاة يبدو أنها خافت مني عندما رأتني. أخذت أتلفت حولي واللعاب يسيل من بين شدقيّ. أتحرك بلا هدف.

تذكرت الفيلا الصغيرة المهجورة في شارع أجا القريب من هنا. أخذت أتحرك بحرص حتى وصلت إليها. دخلت إلى الحديقة من بين قوائم البوابة

الحديدية. استلقيت أسفل شجرة المانجو العجوز وألصقت نفسي بجذعها. ضممت أطرافي معا وتكورت على نفسي. ظللت أرتجف لفترة طويلة جدًّا.

كان عقلي مشلولا عاجزا عن التفكير. شعرت بدموع ساخنة تسيل من عينيّ، ولم أكن أعرف أن الكلاب تبكي.

٩

استيقظت من النوم. كان الوقت فجرًا والموجودات ما زالت تميل إلى الأزرق. وجدت أنني ما زلت في حديقة الفيلا المهجورة. يبدو أنني نمتُ دون أن أشعر.

كنت ما زلت كلبًا. ظللت أقاوم تصديق هذه الحقيقة لفترة طويلة. لا أستطيع أن أصدق! حقًّا لا أستطيع أن أصدق! تمنيت لو أنه كان كابوسًا وسينتهي عند الاستيقاظ، لكنه لم يكن كذلك. هأنذا أنظر إلى العالم من منظور سفلي. هاهي ذي أقدامي. ها هي ذي مخالبي. ها هو ذا ذيلي يهتز خلفي. ها هو ذا لساني يتدلى وأنا ألهث.

كنت أظن أن الكلاب ترى باللونين الأبيض والأسود. كنت قد قرأت هذه المعلومة في إحدى مجلات الأطفال قديما، لكن هأنذا أكتشف أنها معلومة خاطئة. يمكنني أن أميّز الألوان لكنها تبدو لي أبهت من المعتاد. وجدت أنني لا أستطيع رؤية الأحمر على الإطلاق. أما الأخضر فكان يميل إلى الرمادي. أخذت أتلفت حولي. كنت في عالم من الأزرق والأصفر والبني والرمادي.

كانت هذه الرؤية المختلفة ـ وربما المشوّهة ـ للعالم تصيبني بالصداع. ها هي ذي حقيقة أخرى: الكلاب تُصاب بالصداع.

إضافة إلى الصداع فقد كنت جائعا. كنت جائعا جدًّا. لا أتذكَّرُ متى أكلتُ آخر مرة. أقصد عندما كنت إنسانا، فلم آكل من قبل وأنا كلب. والآن ماذا سأفعل؟ كيف سأجد طعاما وكيف أُسكت هذا الجوع؟

كان كل تفكيري ينحصر الآن في إسكات الجوع. لاحظت أن قلقي من مأساة تحولي إلى كلب يقل ويتضاءل أمام مشكلة الطعام. غريزة الجوع. الحاجات الأساسية. تَوارَى كل شيء في مؤخرة رأسي ولم أعد أفكر سوى في الحصول على الطعام.

كنت ما زلت في مرحلة تعلم المشي، مثل طفل يجرب ويخطئ ويقع كثيرا، لكن لم يكن هناك مَن يسندني. نهضت وقررت التدرب على المشي أولا في حديقة الفيلا قبل أن أخاطر بالخروج. كان تحريك أطرافي الأربعة في نفس الوقت يُربكني. لا أعرف ما هي الطريقة المُثلى لمزامنة حركة الأرجل الأربع. هل أحرك الأمامية اليمنى مع الخلفية اليمنى معا ثم الرجلين الأخريين؟ أم أحرك الأمامية اليمنى مع

الخلفية اليسرى، ثم الأمامية اليسرى مع الخلفية اليمنى؟ جربت هذا وذاك ولم أتوصل إلى طريقة مُثلى. ربما عليّ مراقبة زملائي من الكلاب كي أتعلّم، أو ربما كان لكل كلب طريقة خاصة فلا توجد طريقة صحيحة وأخرى خاطئة. ذكرتني تقلصات معدتي أن عليّ الآن أن أتحرك للحصول على طعام. لعلّي سأتعلم المشي بطريقة صحيحة مع الوقت. كل ما عليّ الآن هو الحركة بحرص.

خرجتُ من بين قوائم البوابة الحديدية. توجهت نحو ميدان سفير وأنا أفكر في أكوام القمامة التي تتجمع بالقرب من محطة المترو. لطالما كنت أتضايق من منظر أكوام القمامة تلك وأنا فتى، ولم أتخيل أن يكون فيها إنقاذ لحياتي يومًا ما. ماذا كنت سأفعل في موقف كهذا لو كنت أعيش في دولة متقدمة تهتم بالنظافة وبصحّة سكانها؟ شكرت الأقدار على كل هذه القذارة.

خرجت من شارع أجا إلى شارع محمود حافظ. لا أعرف كم الوقت الآن، لكني رأيت الزحام أمام الباب المغلق للبنك الأهلي فتوقعت أن الثامنة والنصف ـ موعد فتح البنك ـ لم تأتِ بعد. كان الجو حارًا وقد وجدت نفسي ألهث وقد دلدلت لساني خارج فمي. حاولت الالتزام بالمشي على الرصيف قدر الإمكان إلى أن خرجت إلى شارع أبي بكر الصديق، ومنه

اتجهت يسارا إلى ميدان سفير. كانت فترة الزحام الصباحي والمرور شِبه متوقف، فعبرت الشارع بسهولة مُتجها إلى مكان تجميع القمامة أمام محطة المترو. لحُسن الحظ أن القمامة كانت متراكمة في مكانها المتوقع، وأن عربة جمع القمامة لم تكن قد أتت بعد. أخذت أنبش بين أكوام الأشياء المتراكمة، لكني لم أستطع تبيُّن أي شيء صالح للأكل، كما أن رائحة حواوشي الأمير كانت تطغى على المكان وتسيطر على أفكاري.

هذا المكان في المساء يصبح في زحام الحافلات العامة. عشرات من الشباب والفتيات يلتهمون شطائر الحواوشي الرخيصة ويُلقون بأغلفتها الورقية على الأرض. كانت الأغلفة الورقية الملوثة بدهون الحواوشي متناثرة في كل مكان، ورائحتها تجذبني من أنفي كما يجذب المغناطيس برادة الحديد. أخذت ألوك تلك الأوراق الدهنية مُتلذذًا، وكلما انتهيت من مجموعة منها انتقلت إلى أخرى، حتى تلك الأوراق الملوثة بآثار دهس الأحذية لم أتركها.

أنا آكُل من الأرض؟ وأمضغ أوراقا مُلوثة بالدهون والغبار؟! أنا أفعل هذا؟ أكاد أن أُصَاب بالجنون! ثم هل أستغرب نفسي آكِلًا من الأرض ككلب، وأتوقف عن استغراب كوني صِرتُ كلبًا؟! لا أريد أن أفكر في هذا الأمر كثيرا وإلا فقدتُ عقلي!

أسكتت مُخلفات الحواوشي جوعي قليلا. رفعت رأسي أتلفت حولي. والآن ماذا؟

١٠

قضيت اليوم أتنقل من هنا إلى هناك. أستكشف الشوارع، وأستكشف جسدي الجديد.

كان أكثر ما يضايقني مسألة الرؤية المحدودة. كنت أرى لمسافات أقل بكثير مما اعتدت، كما أن عمَى الألوان زاد الأمر سوءًا. المسألة الثانية هي الذيل: كان ذيلي يتحرك من تلقاء نفسه بشكل لا إرادي، وكأن له حياة مُنفصلة خاصة به، ويبدو أن مسألة التحكم في حركته بحاجة إلى تدريب وتعليم لم أحصل عليه.

المسألة الثالثة هي شعوري بالعُري. أسير في الشوارع هكذا عاريًا! لعل ما كان يضايقني بالأكثر ليس شعور الخزي، فلم يكن هناك ارتباط في ذهني بين جسدي وجسد الكلب، على الأقل لم يكن هذا الارتباط قد تكوّن حتى الآن. لم أكن أشعر به كجسدي الخاص كي أخجل من عُريه، وتأرجُح خصيتيه وانكشافهما أثناء الحركة أحيانا، أو ثقبه الشرجي حين أجد ذيلي وقد ارتفع إلى أعلى تلقائيا، لكن ما كان يُؤرقني هو جلدي المكشوف بالكامل طوال الوقت للشمس والتراب وعوادم السيارات، ثم

أرجُلي الحافية التي تدوس على قاذورات الشوارع. إنها مسألة هوس النظافة الذي رُبّيتُ عليه منذ الصّغر. كنتُ قلقًا من أن أعرّض جلدي المكشوف وأقدامي الحافية للأذى، فينتقل هذا الأذى إلى جسدي الحقيقي عندما أتحوّل مرة أخرى إلى ولد. هل ما يحدث لجسدي ككلب سينتقل حقًّا إلى جسدي البشري؟ وهل سأعود إلى طبيعتي حقًّا يومًا ما؟ حاولت ألا أفكر كثيرا في هذا الأمر كي لا يتسرب اليأس إلى قلبي. تكفيني همومي الحالية.

شعرت بالرغبة في التبول، ولم أدرِ ماذا أفعل. دلفتُ إلى شارع جانبي هادئ وانزويت خلف إحدى السيارات المصفوفة بحذاء الرصيف، وتركت البولَ ينسابُ. فوجئت وقد بللتُ ساقيَّ الخلفيتين! أخذت أنفض ساقيّ كي أتخلص من البلل. كان يجب أن أرفع إحدى ساقيّ كما تفعل الكلاب. كيف فاتني هذا؟ ما زال أمامي الكثير جدًّا لأتعلمه.

كانت المهمة الأكثر إثارة أمامي هي استكشاف الشوارع. أخيرا حانت لي هذه الفرصة، وأنا وإن كنت لم أسِرْ في هذه الشوارع من قبل، إذ نادرا ما كان ينحرف طريقي عن المسار ما بين المنزل والمدرسة، إلا أنني أكاد أحفظها جميعا عن ظهر قلب من طول تأملي لخرائط جوجل.

أبي لم يكن يسمح لنا بالتأخير بعد المدرسة ولو لدقائق. كانت مسألة التجول في الشوارع هذه مرفوضة ومحظورة تمامًا.

كان العالم بالنسبة لنا ينقسم إلى قسمين منفصلين لا رابط بينهما. العالم الآمِن الصحي والطبيعي، حيث البيت النظيف والمدرسة المنضبطة، حيث الأب والأم والأمن والرقابة اللصيقة المستمرة التي تطرد الهوام أولا بأول وتحافظ على البيئة نظيفة ومعقّمة. ثم هناك العالم الثاني حيث الشوارع وكل ما يجري فيها، حيث المخاطر والسرقات والنصب والقمامة وعوادم السيارات والتلوّث. حيث الكلاب المسعورة وخاطفو الأطفال والبلطجيّة وشمّامو الكُلّة. حيث الشباب العابث والفتيات المنحلات والقُبلات المُختَلَسَة والأحضان غير البريئة على محطات المترو وأسفل الأشجار الضخمة. حيث يجول العصاة والزناة والأشقياء والمخبرون ورجال المباحث، وكلٌّ يبحث عن فريسة يلتهمها. حيث كل شيء بارد ومُظلم ومُهلك.

هناك حدّ فاصل بين العالمين وقد جعلتني تلك الساحرة أعبره. إن العالم الذي كنت أعيش فيه ليس إلا نصف العالم، بينما هناك نصف آخر لا أكاد أعرف عنه شيئا. اليوم أترك العالم الأول وأنتقل ـ مُرغمًا ـ إلى العالم الثاني. اليوم صار عليّ أن أحدّد بنفسي

ما هو المسموح وما هو الممنوع. اليوم عليّ أن أستكشف هذا العالمِ وأعرفه، بل وأندمج فيه، بل إن اندماجي فيه صار شيئا أساسيا وإلا فإن هلاكي محتوم.

أخذت في استكشاف الشوارع - بيتي الجديد - شيئا فشيئا. في البداية استبعدت جمعية الأسماك الحكومية التي تحتل ركن الميدان من خططي؛ فغالبا لن تكون ذات فائدة لي، بالروائح الكريهة النفاذة التي تنبعث منها والزحام الذي لا ينقطع عن مدخلها. أنا لا أحب السمك، أم لعل الكلب هو الذي لا يحب السمك الآن؟ يلي الجمعية متجر للملابس، ثم آخر للملابس الداخلية، ثم المقهى، وكان رواده قليلين في هذه الساعة الصباحية، ثم بعض محال الملابس، ومطعم نادر الزوار، ثم محلان للعجيل. وقفت قليلا أمام فاترينة العجيل ٢٠٠٠ أتأمل هاتف سامسونج الجديد. كان الهاتف معروضا في رفّ مرتفع قليلا مقارنة بطولي الجديد، استندت على الفاترينة بقائمتيَّ الأماميتَيْن كي أرفع رأسي وأرى أفضل. فجأة تلقيت ركلة هائلة في قفصي الصدري أطاحت بي إلى أسفل الرصيف، مع صيحة من أحد مُوظّفي المحل: امشِ يا ابن الكلب! عويت متألمًا وعبرت الشارع جريًا إلى الناحية الأخرى. كادت سيارة أن تصدمني وسمعت صوت صرير العجلات

على الأسفلت. هذه المرة انتبهتُ إلى السيارات قبل أن أعبر الاتجاه الآخر، ثم هرولتُ إلى شارع إسماعيل رأفت الجانبي. ارتميت تحت أول شجرة صادفتني. بمجرد أن رقدت على الأرض حتى عاد الألم بشدة. أخذت أئنُّ بصوت منخفض. كان الألم ينخسني مع كل شهيق. شككت أن ضلعا ما ربما تكون قد انكسرت. لو حدث هذا فقد قُضي عليَّ من أول يوم لي ككلب. ذلك الملعون! لماذا يفعل هذا؟ ماذا فعلت ليركلني هكذا؟ أليس من حق الكلاب أيضًا أن تتفرج على الفتارين؟

ظللت راقدًا لفترة طويلة على الأرض. كان مجرد التنفس يحتاج إلى مجهود كبير، وصبر، وتحمُّل. لماذا يفعل الناس أمورًا كهذه مع الكلاب؟ ألسنا أرواحًا حيَّة؟ أليس لنا حقّ نحن أيضًا في الحياة وفي السعي وفي الطريق؟ وإذا لم يكن الناس يؤمنون حقًّا بحقّ الكلاب في أي شيء، ألا يمكن أن يدور في ذهن أحدهم أن هذا الكلب الذي يؤذيه قد يكون فتى مسحورًا ومُتحولا إلى كلب برغم إرادته؟

شعرت أنني يجب أن أقوم؛ فليس آمِنًا أن أظل مُسترخيا هكذا على الأرض. تحاملتُ على نفسي لأنهض. ظللت أسير الهوينى إلى أن وصلت إلى تقاطع إسماعيل رأفت مع شارع حسونة النواوي. فرحت للغاية إذ وجدت كومة هائلة من القمامة

متجمّعة عند الناصية. كومة ضخمة تحوم حولها أسراب من الذباب. أنساني منظرُها آلامي. لعل هذه الكومة هي ما سيُسكت جوعي ويوفر لي مصدرًا متجددا للغذاء. اقتربت من الكومة ففوجئت بشلة شمامي الكلة يجلسون بجوار الكومة ساندين ظهورهم إلى سور العمارة.

لشمّامي الكلة شُهرة وسُمعة في ميدان سفير. سمّوا بها الاسم لأنهم مدمنون على شم تلك المادة اللاصقة، وإن كنت لم أرهم أبدا يفعلون هذا. ربما يفعلون هذا سِرّا وربما توقفوا عن هذه العادة وانتقلوا إلى أنواع أخرى من الإدمان. بسببهم كان أبي يمنعنا من النزول من المنزل مساء. إنهم يُقيمون في الميدان منذ سنوات طويلة لا أستطيع عدّها. منذ تشكل وعيي وصار لي إدراك وهم موجودون في الميدان. يتمركزون في الحديقة الوسطى في شارع أبي بكر الصديق، ويستحمون فيها، ويتنقلون بشكل دائم في شوارع الميدان الجانبية. شباب وفتيات يعيشون معا في الشوارع. في الشوارع يأكلون ويشربون وينامون ويتغوطون ويستحمون ويتناسلون، ولديهم أطفال يربونهم في الشوارع أيضًا. بناء على الشكاوى المتكررة من سكان المنطقة، تقوم الشرطة بمهاجمتهم كل بضعة أشهر. يطاردونهم في الطرقات ويضربونهم بالعصي. يختفون لأيام قليلة

ثم يعودون. لا سبيل للخلاص منهم، فقد تحولوا إلى جزء لا يتجزأ من المكان. هم خفافيش الليل في العالم الثاني، نقيض عالمي النهاري الأبيض المُعقم. وجودهم ضروري وأساسي لحفظ التوازن في الكون.

كنت قد أجفلت عندما رأيتهم وتوقفت مكاني. لطالما كنت أرتعب منهم عندما ألمحهم من بعيد. كنتُ إذا رأيت أحدهم على الرصيف حوّلت اتجاهي فورا إلى اتجاه آخر آخِذًا دورة أوسع في طريق العودة إلى البيت، أو ربما نزلت إلى نهر الطريق كي لا أعبر بجوارهم على الرصيف. كان منظرهم شديد القذارة ورائحتهم المُنفرة ونظراتهم الوقحة تثير رُعبي، وبخاصة كبيرهم ذو الندبة الكبيرة على خده.

كان ذو الندبة يجلس أمامي الآن مُمدِّدًا ساقيه ومُتكئا بظهره إلى السور. إلى جواره شاب نحيل أشعث الشعر، ومعهما فتاة سمراء ترتدي جلبابا أسود، وكانوا يتناولون طعامهم على الأرض. نظر لي صاحب الندبة وقد ظننت أنه سينهرني لتطلعي إليهم ولطول وقفتي المتسمرة. كنت قد نسيت في هذه اللحظات أنني كلب! فُوجئت به يقطع جزءا من شطيرته ويلقي لي به على الأرض. انحنيت أتشمم الشطيرة. كانت شطيرة لحم من محل الحواوشي. أخذت أزدردها في تلذذ. تلك الساندويتشات التي كانت رائحتها الفواحة تُثير أعصابى فيما مضى

صارت مصدر لذة عظمى.

جلست بجواره على الأرض فأخذ يربت على رأسي كأنني صديق قديم. أخذت ألهثُ في سعادة وأنا أشعر نحوه بامتنان حقيقي، حتى إنني نسيت آلام الركلة التي كانت لا تزال تنبض في صدري. كان هذا أفضل شيء حدث لي منذ زمن طويل.

١١

انتهت شلّة الكُلّة من تناول الطعام. أشعلوا السجائر وأخذوا ينفثون الدخان. منذ صغري ودخان السجائر يضايقني بشكل خاص، واليوم صار أنفي أكثر حساسية بما لا يُقاس. امتزجت رائحة الدخان برائحة القمامة، وصار الذباب يحوم حول الدخان، ويحط على أيديهم ووجوههم وشعورهم، بينما لا يهتم أي منهم بمجرد محاولة إبعاد الذباب. أخذت أراقب ذبابة تتحرك فوق ندبة صاحب الندبة. تصعد عليها ثم تهبط ثم تتمشى على قفاه قليلا ثم تعاود صعود الندبة، وكأنها تتخذ منها زحليقة للعب. كان منظرها يستفزني بشدة، ويمنحني رغبة مُلحة في حك جلدي. استمرت الذبابة في الحركة على الندبة دهرا. كنت عاجزا عن إبعاد عينيَّ أو صرف ذهني عنها. سيطرت الذبابة على تفكيري تمامًا، وشعرت بها تتحرك حركتها المتقطعة المستفزة تلك داخل تلافيف مخي. كان هذا الأمر يُهيّجني بشدة. شعرت أنني لا بد وأن أفعل شيئا لدفع هذه الذبابة بعيدا. قفزت على صاحب الندبة وأخذت ألعق ندبته. سقط صاحب الندبة على الأرض وأخذ يضحك ويُقهقه بصوت عالٍ، ظنّ أنني أفعل هذا من شدّة حبّي له. كنت أريد فقط دفع الذبابة! لكن هذا جعلنا صديقَيْن

منذ تلك اللحظة.

نهض الثلاثة بعد أن انتهوا من التدخين. ساروا متجهين إلى شارع أبي بكر الصديق. كنت أريد أن أتبعهم لكن طبيعتي القديمة ككلب عاندتني. كانت تخبرني أنني لا يجب أن أختلط بخفافيش الظلام أولئك.

قررت أن أواصل استكشافي للشوارع، على أن أكون أكثر حذرا هذه المرة، وألا أتجاوز حدود حقوقي ككلب. ليس للكلب أن يقف ليتأمل المعروضات في الفتارين. هذه من حقوق البشر فقط.

عُدت أدراجي إلى الميدان. وقفت على الرصيف أمام محل كاباللو كاباللو لملابس المُحجبات. كان أبي قد قال لي إن هذا المحل كان صيدلية قديمًا، ربما حتى الثمانينيات، وكان جدي يرسله لشراء الأدوية منها. بالطبع كان هذا قبل أن أولد بوقت طويل. هذا الميدان نفسه لم يكن مسدودا هكذا، وإنما كان به صينيّة دائريّة مثل ميادين تريومف وسانت فاتيما والحجاز. ميدان الجلاء أيضًا كان صينيّة دائريّة تعج بالأشجار قبل بناء الكوبري. هنا مكان هذه القمامة كان يسير المترو. هذه الأبراج العالية كان مكانها فيلات صغيرة بحدائق. لَكمْ تتغيّر الأشياء مع الزمن! كل شيء يتغيّر. قليلا جدًّا

ما كنّا نتحدث أنا وأبي، لكن حين كان يفعل لم يكن يتحدّث إلا عن أيام طفولته في مصر الجديدة، وكم كانت الحياة جميلة وسَلِسة وسهلة وآمِنة. يظل يقارن بين ما كان وما صار. كنت أغتاظ كثيرا من هذه الحكايات. أبي هذا الذي يحبسني في البيت معظم الوقت ولا يسمح لي بالخروج قضى طفولته متجوّلا في الشوارع هنا وهناك. ألم تكن هناك أخطار حقًّا في ذلك الزمان؟ على الأقل أخطار من أنواع أخرى غير الموجودة حاليا؟ ألم يكن هناك لصوص؟ أم أن اللصوص كانوا ألطف، والنصابين أكثر رحمة؟ هل مشكلتنا أننا وُلِدنا في زمن رديء؟ كل شيء صار أسوأ. كل شيء تدهور، بدءا من البيوت والشوارع والمرور وحتى أخلاق اللصوص.

عبرتُ الشارع وأخذت أسير على الرصيف الأوسط المخصّص لمسار المترو الذي توقف عن العمل منذ زمن بعيد، ظللت أسير بامتداد شارع عثمان بن عفان، متأمّلا المتاجر على اليمين واليسار، إلى أن وصلت إلى ميدان تريومف. عبرت إلى الصينيّة الدائريّة للميدان. كانت النافورة تعمل. وجدت أنها فرصة مناسبة للشرب. قفزت على حافة النافورة وشربت حتى ارتويت، بعدها رقدت أسفل شجرة الصنوبر الضخمة. كان الجو حارًّا وكنت أشعر بجسمي ساخنا من أثر المشي على الرصيف الأوسط

في الشمس. شعرت بتعب شديد. لا توجد لدى الكلب غُدد عَرقية. لعل ما فعلتُ كان خطأ. قد يكون من الأفضل بعد ذلك أن أرتاح نهارا على أن تكون الحركة أثناء الليل. ما زال أمامي الكثير قبل أن أتعلّم حياة الكلاب.

ظللت راقدًا لفترة طويلة. فجأة شعرتُ بتزايد الزحام في الشوارع، ورأيت الكثير من الصِّبية بملابس المدارس آتين نحو الميدان. أعتقد أنهم طلبة مدرسة جمال عبد الناصر القوميّة القريبة. كانوا يسيرون في مجموعات صغيرة. يصيحون ويتدافعون ويضحكون. تذكّرت أن اليوم يوم دراسيّ، وأنني تغيّبت عن المدرسة. تُرى ما مصير مستقبلي الدراسي الآن؟ كم يومًا يمكنني أن أتغيّب قبل أن تقرر المدرسة فصلي؟ وهل سأعود إلى طبيعتي البشريّة قبل أن أُفصَل؟ وهل سأتمكّن من العودة لطبيعتي أصلا؟ أم سأظل كلبا ما حَييت؟

عَبرَ بعضُ الطلبة إلى حديقة الميدان. إنهم في مثل عمري تقريبا. يَسبُّ بعضهم بعضا بألفاظ غاية في البذاءة. تضايقت. كيف انحدرت الأحوال حتى صارت هذه الألفاظ القذرة تنطق بشكل اعتيادي بطول البلاد وعرضها، ومن مراهقين وحتى من أطفال لم يبلغوا بعد؟ كان سماع هذه الألفاظ يُضايقني. لا أدّعي أنني أفضل خُلقًا من هؤلاء الطلبة، لكن

التربية الصارمة التي خضعت لها في المنزل، وفي مدرستي أيضًا، ربما كان لها هذا الأثر. هؤلاء الأطفال والمراهقون لديهم إدراك عقلي متقدّم، أكثر بكثير مما يظن فيهم الكبار. إنهم يعرفون أنهم بلا مستقبل. يدركون أن الأوضاع سيّئة وستسوء أكثر. ليس لديهم أي آمال أو أحلام من التي يتوقعها ويحلم بها أترابهم في البلدان الأخرى. يعلمون أنهم ميّتون وأنهم مدفونون أحياء. لا وظائف تنتظرهم ولا سفر ولا حب ولا جنس. أنا أيضًا كنت أدرك هذا. ربما كان يجب عليّ أن أسب وألعن أنا أيضًا، لعلّي أنفث شيئًا من غضبي.

فجأة عَبَر حجر أمام وجهي. كان أحد أولئك الطلبة قد رماني به دون أن أنتبه. كانت الرمية من الشدّة حتى اضطرتني لإغلاق عيني من شدة الهواء الذي أزاحه الحجر. لربما إذا أصابتني تلك الضربة لكسرت فكّي. نهضت وتراجعت للخلف. رأيت مُهاجمي ينحني وهو يلتقط حجرا آخر. كان يضحك كالمعتوه. ما الممتع في إيذاء كلب مُسالم؟ رماني بالحجر الآخر. قفزت وتفاديته. انحنى يلتقط حجرًا آخر. أخذت أنبح عليه. انضم إليه أصدقاؤه وبدءوا يجمعون الحجارة من الأرض. كانت الأمور قد بدأت تأخذ مُنحنى خطرًا. انطلقت أجري ووابل من الحجارة يلاحقني. خفت أن أعبر الشارع بهذه

السرعة فتدهسني إحدى السيارات. أخذت أدور حول صينية الميدان وهم يجرون خلفي. سمعت صوت زجاج ينكَسِر. كان أحد الأحجار قد أصاب نافذة سيارة عابرة فحطّمها. توقف صاحب السيارة ونزل منها ثائرا شاتما لاعنا. انطلق الأولاد الذين كانوا يطاردونني هاربين بينما جرى صاحب السيارة خلفهم محاولا الإمساك بأحدهم. ظل المرور متوقفا في الميدان لفترة والسيارات تُطلِق أبواقها وتحاول الالتفاف حول السيارة المتوقفة ذات الزجاج المحطم، إلى أن عاد صاحب السيارة لاهثا مُحتقنَ الوجه مقطوع النفس. بالطبع لم يتمكن من الإمساك بأي منهم. كان لا يزال يسبّ ويلعن. ركب سيارته وانطلق بها انطلاقة عنيفة جعلت الموتور يصرخ والإطارات تصنع سحابة بيضاء فوق الأسفلت.

عُدت إلى النافورة لأشرب، وقررت أن أستريح قليلا من أثر الجري في مكاني السابق أسفل الشجرة، قبل أن أعود إلى كومة القمامة في شارع إسماعيل رأفت كي أبحث عن شيء يصلح للأكل.

لم تكن شلة الكُلة هناك. لم أجد شيئا يؤكل سوى بضعة أرغفة قديمة جافة. أخذت ألوك الخبز وقد أتعبني كثيرا في مضغه. شعرت بالعطش بعد أن انتهيت. فكّرت أن أرجع إلى النافورة في تريومف لأشرب، ثم تكاسلت أن أعود إلى سَيْر كل هذه

المسافة.

كان الغروب قد بدأ يهبط على المدينة. قررت أن أعود إلى الفيلَّا المهجورة في شارع أجا كي أمضي الليل.

وأسفل شجرة المانجو العجوز رقدت على الأرض. ظننت أنني سأنام على الفور لكن هذا لم يحدث. أخذت أفكر طويلا في أحداث اليوم ووقائعه.

لقد انتهى يومي الأول ككلب. ما زلت حيا، وهذا في حد ذاته إنجاز كبير.

١٢

استيقظت مع الفجر. كانت العصافير من سكان الشجرة هي ما أيقظني. ليس صوت العصافير وإنما برازها. استيقظت على شلالات من البراز تنهمر فوق رأسي.

قفزت من مكاني وابتعدت عن الشجرة. لم أعرف كيف أتصرف. أخذت أحك رأسي في أحد جدران الفيلَّا. أنا بحاجة إلى حمَّام عاجل. لكن كيف أحصل عليه؟ تذكرت النافورة. سأذهب لأقفز داخلها، لكن سأذهب أولا إلى كومة قمامتي المفضلة لأتناول الإفطار.

تعلمت الآن أن أسير بانتباه كامل لما يحدث حولي. بعض الناس يعتدون على الحيوانات بلا سبب. تكفي المواقف السيئة التي تعرّضت لها بالأمس. إن إصابةً واحدة كفيلة بالقضاء على حياتي. إذا حدث أن جُرحت وتلوّثَ الجرح فلا توجد وسيلة للعلاج أو لتعاطي مضاد حيوي. سأموت مثل كلب. أعني أنني سأموت فأنا كلب بالفعل. دائمًا ما أنسى هذه الحقيقة.

لم أجد كومة القمامة على الناصية. يبدو أن عربة القمامة أتت ليلا ورفعَتْها. ربما عليّ أن أحفظ مواعيد سيارة القمامة. لكن هل لها مواعيد حقًّا؟ لا شيء في هذه الدولة يلتزم بميعاد.

كان الجوع يقرص معدتي.

سمعت صوت نهيق حاد ومرتفع. إنه الحمار الذي يجر العربة الكارو الخاصة بنبّاش القمامة. يضع الناسُ أكياسَ قمامتهم في أكياس سوداء على نواصي الشوارع، ثم يأتي النبّاش. يفتح الأكياس ويسكب محتوياتها على الأرض، ويأخذ الأكياس الفارغة وكل ما هو مصنوع من البلاستيك أو الكرتون أو الورق أو المعدن، أو أي شيء يمكن الاستفادة منه، ويضعه على العربة الكارو ويمضي، تاركا المكان في فوضى عارمة. نظام متخلف لدولة فقدت عقلها.

لم يجد النباش شيئًا على الناصية فمضى بالعربة. قررت أن أتبعه فهو يعرف أين يتم تجميع القمامة وقد أجد شيئا أُسكتُ به جوعي.

سارت العربة في شارع إسماعيل رأفت ثم انحرفت إلى حسين المرصفي ومنه إلى عبد الوهاب النجار ثم إلى شارع النزهة. بدا لي أن النباش يتجنب السير

في الشوارع الرئيسية قدر الإمكان. استمررت في السير خلفه وكنت أتجنب في سَيْري الروث الأصفر الذي يُطلقه الحمار من آنٍ لآخر.

كانت هناك كومة من القمامة على الرصيف الأوسط حيث قضبان المترو. أوقف النباش العربة وعَبَرَ إلى الناحية الأخرى وأنا خلفه. كانت هناك عدة أكياس قمامة مستندة إلى العمود الذي يحمل أسلاك المترو. في ثوانٍ كانت كلها مفرّغة على الأرض. وقفت على بُعد أمتار أراقبه إلى أن انتهى من جمع ما يبحث عنه. عَبَرَ الشارع وألقى بما جمعه في العربة ثم ركب وتحرك عكس اتجاه السير نحو الميدان. اتجهت إلى كومة القمامة وأخذت أنبش أنا الآخر بحثا عن شيء يؤكل، وفي الخلفية كان صوت أبواق السيارات يأتي بشكل متصل، مع واصل من السباب. لم أكن بحاجة إلى أن أنظر كي أعرف أن النباش هو المقصود بالسباب.

وجدتُ بعض عظام الدجاج، وبعض الخبز البائت. كانت عظام الدجاج قاسية، لكن الخبز استطاع أن يملأ بطني ويُسكت جوعي. رأيت ثلاث قطط تقترب من كومة القمامة. أخذت تنبشُ بجواري بلا استئذان ولا إحم ولا دستور. شعرت بالغيظ. كنت أعتقد أن القطط تخاف من الكلاب، لكن هذه القطط ليس لديها تمييز ولا تحمل أدنى احترام لسلّم

التطور. كنت غاضبا. لا أعرف لماذا. لعلها مشاعر حيوانية انتابتني فجأة، لكني أخذت أنبح تجاهها محاولا إبعادها. كان أكبرها حجمًا ذكرًا شرسًا ممتلئ الجسم، وهذا أخذ يموء مُهددًا، بينما استمرت القطتان الأخريان في النبش بلا اكتراث، مما أشعرني بالغضب أكثر. اقتربت أكثر وأخذت أنبح، لكن القط لم يتراجع وأخذ يموء بذلك الصوت المُهدد الذي يشبه بكاء الأطفال، ثم رفع يده بجانب وجهه وشعرت أنه سيخمشني في وجهي إذا اقتربت أكثر. قررت التراجع واستدرت مُتجها إلى الميدان.

كانت هذه الهزيمة تُشعرني بغصة في الحلق. أنا أتراجع هكذا مُندحرا أمام قط؟ حقًّا إن الحياة أصعب مما كنت أظن. شعرت أنني صِرتُ عارا على جنس الكلاب، وتمنيت ألا يكون أحد قد رآني في هذا الموقف المخزي.

وجدت نافورة الميدان متوقفة عن العمل ولا ماء فيها. كانت بقايا براز الطيور ما زالت على جلدي. كان لديّ أمل في أن أغتسل. فكرت في أننا نحن البشر، وفي هذا العصر، صارت حياتنا أسهل بما لا يُقاس. نفتح الصنبور فيأتي الماء في لحظة. نفتح الثلاجة فنجد الطعام. نقضي حاجتنا ونضغط على زر فيتم التخلص من الفضلات فورا. لقد صارت حاجاتنا الأساسية كلها مجابة ومتوفرة، فصار لدينا

وقت كافٍ لنتفرغ لقتل بعضنا بعضا.

وقفت مترددا لا أدري ماذا أفعل. قررت أن أسير بامتداد شارع النزهة إلى سانت فاتيما. وجدت أنه من الأفضل أن أسير على الرصيف الأوسط كي أبتعد عن البشر قدر الإمكان. مررت على كازينو تريومف المهجور ثم صيدلية تريومف ثم مكتبة العائلة ومارينا للمحمول، وكان الزحام على أشده كالعادة أمام مطعم أضواء العالم للفول والفلافل. أخذت أتسلى بقراءة اللافتات. كنت أقرأ اللافتات على جانب واحد كي لا أشتت نفسي. بقالة أسوان الكبرى، ثم بافلي، ثم بُن الشامي. صالون تريومف وأورفانديس، وكوافير محفوظ، وأجزخانة داود، وأنس الدمشقي، ومرطبات فرغلي، ومجوهرات هاني، والمالكي. سينما كريستال المهجورة التي تحولت إلى جراج. قطونيل والمتحدة وبنك مصر. على الناحية الأخرى كان الزحام المعتاد والفوضى العارمة أمام أولاد رجب.

وصلت إلى الميدان أخيرا. عبرت الشارع إلى الرصيف الأيمن. هناك فرشة كتب أمام متجر هدايا القدسي. لم أستطع أن أقاوم وتذكرت هوايتي القديمة. وقفت أمام الفرشة أطالع عناوين الكتب المعروضة. يبدو أن وقفتي قد طالت دون أن أشعر. سمعت صاحب الفرشة يُكلم صاحبه. قال إنه يكاد

يقسم إن هذا الكلب يقرأ وإن عينيه تتحركان فوق السطور. نظرت إليه فوجدته يحدق بي مستغربا.

سألني: هل تقرأ حقًّا يا ابن الكلب؟

نبحت، فأخذ يضحك.

تركته وعبرت شارع عبد العزيز فهمي إلى الحديقة الوسطى المقابلة لكنيسة سانت فاتيما. الحديقة ظليلة وذات أشجار كثيفة. أعجبتني الحديقة. أخذت أتمشى في الممشى الأوسط الممهد بالأحجار. كان هناك شاب يرتدي ملابس رياضية يسير بصحبة كلب أبيض صغير من النوع الذي يسميه الناس لولو. الكلب له طوق مربوط بحبل والحبل في يد الشاب. كان الكلب سعيدا ويتقافز هنا وهناك. رآني الشاب واقفا فاقترب مني. استند بركبته على الأرض وأخذ يربّت على رقبتي وأسفل فكي. انتابتني قشعريرة. انفعال جارف سرى من رأسي حتى أخمصي. أغمضت عينيَّ وأخذت أتشمم يده. كنت مُشتاقا إلى مثل هذه اللمسات الحانية. لا أذكر أن أبي لمسني هكذا أبدا. استمر في دعك رقبتي بأصابعه حتى إنني كدت أبكي. أخذ الكلب الصغير ينبح غاضبا. إنه يشعر بالغيرة.

«آسف يا ريكس!». هكذا قال الشاب لكلبه وأخذ

يربت على رأسه هو الآخر. ريكس! هذا البرص الصغير اسمه ريكس! لو أن أحدًا يستحق اسم ريكس فهو أنا! انظر له وانظر لي! هذا البرص الأبيض غزير الشعر!

أخذ الشاب البرص ومضى. وقفت أتأملهما وهما ماضيان. تمنيت لو كان قد أخذني معه. شعرت بتعاسة شديدة، حتى إنني ارتميت على الأرض.

١٣

ظللت راقدا على الحشائش لفترة طويلة، حتى بدأتُ أهدأ قليلا. قررتُ ألا أفكر كثيرا في حالي ومصيري كي لا أُصَاب بالجنون. لا يصل بي التفكير إلى أي حلول منطقية، ربما لا توجد حلول منطقية أصلا فما حدث لي خارج كل منطق.

نهضت وقررت أن أواصل السير. سأكمل شارع النزهة حتى ميدان الحجاز. مرة أخرى أخذت أتسلى بقراءة لافتات المحلات: بعد الكنيسة أبو عمار السوري ومرطبات العربي، سرور، شاورما الريم، بنك باركليز، فيسبوك، أبو عسل، دوس لفرش السيارات، جزارة الدهان، اتصالات، صيدلية العزبي، ناجي فون، مصعب، فضيات العربي، جزارة النقيب، ميرامار، العجيل الحجاز، كوافير محمد علي، كشري هند، صيدلية الإسعاف. وصلت ميدان الحجاز أخيرا.

كنت في حالة شديدة من العطش بسبب سَيري على الرصيف الأوسط المخصص للمترو تحت الشمس بلا ظِلال. تدلى لساني خارج شدقيّ وأخذت ألهث. عبرت الشارع من أمام بنك قطر الوطني، وانحرفت

إلى شارع الحجاز. اختلف المنظر كليا بسبب الحديقة الغنَّاء التي تحتل الرصيف الأوسط. عبرت الشارع إلى الحديقة كي أبقى في الظل. كانت هناك بِرَك من الماء من أثر ريّ الأشجار تجمعت هنا وهناك. أخذت أشرب حتى ارتويت، ثم جلست تحت شجرة. أعجبني المكان وفكرت أنني ربما من الأفضل أن أبقى هنا بدلا من ميدان سفير.

بعد قليل رأيت كلبين من نفس نوعي يقتربان. إنهما ذكران. وقفا ينظران لي قليلا ثم أخذا في النباح. نهضت واقفا ولم أدرِ ماذا أفعل. هل اخترقت منطقة نفوذهما هكذا بجلوسي في المكان؟ وهل كلاب الشوارع البلدية لها مناطق نفوذ كالأسود والدببة؟ لا أعتقد. أظن أنهما أحسّا أن فيّ شيئا غريبا وأنني لست كلبا حقًّا. استمرا ينبحان، وأنا كنت في حيرة، ثم قررت أن أبتعد عن المكان. تراجعت بظهري لكنهما استمرا يتقدمان نحوي. خفت أن يهجما عليّ. تعتمد المواجهات في عالم الحيوان على استعراض القوة أكثر من المواجهة المباشرة. توقفت عن التراجع وأخذت أنبح، لكنهما ازدادا شراسة. كانت هذه خطوة متأخرة فقد أيقنا أنني أضعف منهما من البداية. هنا استدرت وأخذت أجري بأقصى سرعة.

استمرا يجريان خلفي حتى ميدان هليوبوليس،

حين توقفا، بينما استمررت أنا أجري باتجاه ميدان المحكمة. توقفت في منتصف المسافة وأنا ألهث. هذا الجزء من الشارع بلا حديقة وسطى. ضاعفَتِ الشمسُ من إحساسي بالتعب. لمحت حديقة الميريلاند من بعيد فقررت أن أتجه إليها.

عبرت الشارع إلى حيث الحديقة وعلى الفور حصلت على ظلال فورية من الأشجار الباسقة أمامها. سِرت بحذاء السور حتى الباب الرئيسي. كان الباب مفتوحا وهناك رجل يجلس على كرسي بالداخل. وقفت أمام الباب قليلا. كان الرجل مثبتا نظره على الهاتف المحمول. عبرتُ داخلا من أمامه بحذر. رفع عينيه عن الهاتف ونظر لي بلا اكتراث ثم عاد بنظره إلى الشاشة.

ابتعدت عن الباب وأخذت أتجول في الحديقة. قالت لي أمي من قبل إن لقاءها الأول بأبي كان في هذه الحديقة. كان زواج صالونات تقليديا. تم التعارف عن طريق خاطبة، وكان اللقاء الأول للأُسرتين في كافتيريا حديقة الميريلاند. جلست الأسرتان قليلا ثم أخذ العريس العروس وتمشيا قليلا في الحديقة. اللقاء الثاني كان في جروبي. اللقاء الثالث كان في الأمفتريون. اللقاء الرابع كان في بيت العروس حيث تم الاتفاق على تفاصيل الخطبة. اللقاء الخامس كان في حفل الخطبة.

أعتقد أن أمي كانت تأخذنا هنا ونحن صغار، لكني لا أتذكر شيئا. كان هناك الكثير من الأشجار المقطوعة. كنت قد قرأت في مكان ما أن هناك توجيهات بقطع الأشجار الكبيرة حتى تكون الأماكن الواسعة مكشوفة فلا تحدث فيها أعمال مُنافية للآداب العامة.

هناك منطقة لألعاب الأطفال لكنها مهجورة وكل شيء فيها مُحطم. رأيت أيضًا بعض التماثيل المتناثرة هنا وهناك، وكانت كلها مُحطمة أيضًا. بالقرب من سور الحديقة المُطل على شارع نهرو رأيت أخيرا شيئا مُثيرا ومُسليًا. كان هناك فتى وفتاة يجلسان مُلتصقَيْن خلف إحدى الأشجار، مواجهَيْن لأحد تلك المباني الدائرية الصغيرة المتناثرة في الحديقة. ذراعه اليُمنى على كتفها ويده اليسرى تمسك بيدها اليمنى. تارة يرفع يدها إلى فمه ويُقبلها، وتارة يتلفت حوله ثم يُقبلها على فمها. كانت هذه أول مرة أرى فيها قُبلة حقيقية في عالم الواقع، بعيدا عن العالم الافتراضي على الإنترنت. وقفت بالقرب منهما أتفرج. توالت القُبلات واحدة تلو الأخرى، وأخذت يده تتسلل أسفل بلوزتها. بدأت أشعر بالإثارة. في القُبلة الأخيرة دفعته الفتاة بيدها قائلة له إن الكلب يُراقبنا. قال لها إنني مجرد كلب! ثم أخذ ينظر لي بدهشة، وكنت - لا إراديًا - قد

أخرجت لساني وأخذت ألهث. هذا الكلب به شيء غريب، هكذا قال. ترك فتاته ووقف وركل الهواء أمامي كأنه يريد أن يضربني، لكني لم أتحرك من مكاني. كرر نفس الحركة مرة أخرى ولم أتحرك أيضًا. هنا قامت الفتاة وقالت له أن ينتقلا إلى مكان آخر. مضى الاثنان بينما ظللت واقفا في مكاني. فكرت أن أتبعهما لكني تراجعت وقد شعرت بالخجل من نفسي.

ماذا أفعل الآن؟ خرجت من الحديقة من الباب الرئيسي إلى شارع الحجاز، وعبرت الطريق إلى الحديقة المُثلثة الصغيرة التي تتلاقى عندها شوارعُ: الحجاز والمعهد الاشتراكي ونزيه خليفة. وقفت أتلفت حولي، ثم رأيت قصر البارون يظهر من بعيد. لَكمْ تمنيت أن أدخل هذا القصر. ربما أقدر على هذا الآن. قررت أن أتجه إليه.

١٤

قطعت شارع نزيه خليفة إلى أن وصلت إلى العروبة. وجدتُ حركة المرور مزدحمة، فتمكنت من عبور الشارع بسهولة إلى حيث القصر.

هناك فتحات كبيرة في السور المعدني تصلح كي أمر منها. ظل هذا القصر لسنوات طويلة بسور بسيط من السلك الشائك، حتى إن أي شخص كان يمكنه الدخول بسهولة. حكى لنا أبي مرة أنه دخل القصر قديما مع مجموعة من أصدقائه وهو طالب في المدرسة الثانوية، وتجولوا في كل الغُرف. لعل كل طلبة مدارس مصر الجديدة قد دخلوا هذا القصر في الثمانينيات والتسعينيات. كانت هذه مغامرة يُفاخر كل واحد بخوضها.

مررت من السور إلى الحديقة الفسيحة. لم يكن هناك أحد، ولا حتى حارس. أخذت أقترب من القصر، وكلما اقتربت كانت تنتابني قشعريرة. كانت الشمس تضيء واجهة القصر الرئيسية مُضفية عليه منظرًا أسطوريا. أخذت الأشكال الخرافية التي تُزين كل سنتيمتر فيه تظهر بوضوح. أفيال وتنانين وآلهة راقصة. كنت أخاف فيما مضى من هذه الأشكال،

لكني كبرت الآن. أنا في الخامسة عشرة! أخذت أصعد السلالم، وكان صعود مثل هذه السلالم العريضة الكثيرة يعطي المرء شعورا بالعظمة، حتى ولو كان كلبا! استمررت في الصعود حتى وصلت إلى الشرفة الرئيسية. هأنذا أخيرا أدخل القصر الأسطوري المُحرَّم. كان الباب الخشبي بلا زجاج وهناك فتحات كبيرة للغاية. تمثالان رُخاميان بلا رأس عن اليمين واليسار. لم يكن الدخول صعبا. صرتُ في البهو الرئيسي. في الداخل كانت هناك تماثيل تبرز من الحوائط أعلى الأبواب. كان هناك صف من الراقصات الهنديات أعلى أحد الأبواب وكلها محطمة الرءوس بفعل فاعل. دخلت إلى الغرفة الثانية. مدفأة كبيرة في منتصف حائط الغرفة، والحوائط مُجلدة بالخشب الذي يحمل رسومًا منحوتة هو الآخر.

الغُرَف أصغر كثيرا مما تخيلت. الحوائط كلها مكتوب عليها عبارات باسبراي أسود، وأكوام من التراب في كل مكان. وجدت تمثالا رخاميا محطما بلا رأس في أحد الأركان. صعدت على السلم الخشبي الحلزوني المُذهل الذي رأيت له صورا كثيرة على الإنترنت. في الطابق الثاني مزيد من الغُرف الصغيرة. أخشاب منحوتة ونقوش ومدافئ ومزيد من التراب والكتابات العبثية على الجدران.

أكملت الصعود حتى الشرفات الصغيرة أعلى البرج. رفعت قائمتَيّ الأماميتين وأخذت أتأمل المكان من أعلى. إحدى الشرفات تطل على السطح الذي كان تقام عليه الحفلات. هناك برجولات تعج بالزخارف، بعضها تطل من أعلاه رءوس أفيال، وبعضها رءوس على شكل بوذا. هل هو بوذا حقًّا؟ لا أعرف. إنه رأس آسيوي على أي حال. كان المبنى السخيف لفندق البارون يطل من الخلف كشيء ناشز على المكان. انتقلت إلى شرفة أخرى وكانت تطل على شارع العروبة. فوجئت أن الشارع يخلو تمامًا من السيارات في الاتجاهين. هذا شيء غير طبيعي في هذا الوقت من النهار. هذا الشارع بالذات لا يخلو من الزحام ليلا ونهارا. رأيت رجالا ببدلات رسمية يقفون على الأرصفة على مسافات متساوية ويعطون ظهورهم للشارع. فهمت أن هناك موكبًا للرئيس سيمر بعد قليل. وجدتها فرصة جيدة لأتفرج. طالت وقفتي وشعرت أن الشمس تأكل رأسي. فكرت أن أنزل وأشاهد الموكب عن قُرب بشكل أفضل. هبطتُ السلم الحلزوني حتى الباب الرئيسي. خرجت، وبينما أهبط السلالم التفت لأرى المنظر خلفي. انتبهت إلى أن هناك نوافذ صغيرة أسفل مستوى البهو. فهمت أن هناك بدرومًا لم أطّلع عليه فعُدت أدراجي! بحثت عن نافذة غير مؤمّنة وقفزت منها. البدروم خالٍ من أي زخارف. أرضيته بلاط عادي، ومرة أخرى الرسوم

والكتابات المشوهة للجدران بالاسبراي الأسود.

فجأة سمعت صوت سارينات البوليس. لقد فاتني الموكب! قفزت خارجا من النافذة وجريت عبر الحديقة إلى شارع العروبة. كان الموكب قد مرّ ولم أتمكن من رؤية شيء. أخذ الرجال ذوو البدلات الرسمية يتحركون مُبتعدين، ثم دقائق وبدأت السيارات تظهر في الشارع مرة أخرى، وكانت تجري بسرعة كبيرة كأنها تحاول تعويض وقت الانتظار. فكرت أنني ربما أذهب للفرجة على القصر الرئاسي، فأنا كلب ولن يهتم بي رجال الأمن إذا وقفت أتفرج عن قرب.

كان الوقت يتجه نحو الغروب والسماء بدأت تغيّر من ألوانها. هل أقضي الليل هنا؟ نظرت إلى القصر خلفي وبدأت أتذكر كل قصص العفاريت الشيطانية التي تحكي عنه. أنا لا أؤمن بهذه الأشياء، لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من الارتجاف عندما تخيلت نفسي هنا وحدي في الظلام!

خرجت كما دخلت، وحاولت أن أعبر شارع العروبة إلى الحديقة الوسطى، لكن كان هذا مستحيلا. الشارع مُتسع والسيارات مُسرعة ولا تتوقف. عدة مرات أنزل عن الرصيف وأحاول العبور لكني أتراجع في اللحظة الأخيرة بعد أن أوقن بحتمية تعرضي

للدهس. لا توجد حقوق للكلاب في هذه المدينة. قررت أخيرا أن أتخلى عن فكرة عبور الشارع. سِرت في الشارع الجانبي المجاور للقصر، ومنه إلى شارع حسن صادق، ثم مررت من شارع صغير لأجد نفسي في شارع الميرغني. كان الشارع متوقفًا تمامًا رغم اتساعه الهائل. يعج بالسيارات والناس. كان الظلام يقترب. لعل الساعة السادسة أو السابعة. لا أعرف بالضبط. إنه الوقت الذي يقرر فيه جميع الناس الخروج لقضاء حاجياتهم في وقت واحد فيقومون بسدّ الشوارع. أخذت أسير في شارع الميرغني إلى أن وصلت إلى تقاطعه مع العروبة. كان العبور سهلا من هذه النقطة من فوق النفق. وصلت إلى سور قصر الاتحادية، وهنا لم أتمكن من مواصلة السير على الرصيف. وجدت سورا من الحديد يغلق الرصيف فاضطررت أن أنزل إلى نهر الشارع. سور حديدي يليه رصيف مزروع بالأشجار ثم سور أصفر من الطوب. لم أتمكن من رؤية شيء. استمررت بالسير ثم انحرفت مع سور القصر إلى شارع الأهرام، وهنا تمكنت من صعود الرصيف مرة أخرى. كان الظلام قد حل وأنا لم أعد أرى جيدا في الإضاءة الليلية، لكني لم أكن مُحتاجًا إلى قوة بصر كي أرى عن بُعد جحافل من الناس تتحرك على الرصيف الآخر أمام المحلات وعلى الرصيف الأوسط. كان هذا هو الجزء الهادئ من الشارع، حيث إن أحدا لا

يجرؤ على المشي على الرصيف الملاصق للقصر. انحرفت مع الرصيف إلى شارع إبراهيم اللقاني. كانت الحواجز المرورية تملأ الشارع لمنع ركن السيارات، والوجود الأمني مُكثفًا. على الرصيف الآخر وكل بضعة أمتار يجلس رجل ذو شارب كثّ على كرسيّ بلاستيكيّ. لو كانت الشوارب تستطيع أن تتكلم لصرخ كل شارب من هذه الشوارب قائلا: صاحبي مُخبر مباحث. لحُسن الحظ أن الشوارب لا تتكلم، لكن همسها من النوع المسموع. كان باقي الشارع مسدودًا بحواجز تمنع مرور السيارات، وعشرات من رجال الأمن ينتشرون في المكان ويتلفتون حولهم. إنهم يشكون حتى في أصابع أيديهم. قررت أن أعود أدراجي لئلا يصل بهم الأمر إلى الشك في كوني إنسانًا مُتحولا إلى شكل كلب، ولن أستطيع وقتها أن أعطي تبريرا مقنعا لكيفية حدوث هذا.

عُدت إلى شارع الأهرام حيث محال الملابس. كان المشي على الرصيف في منتهى الصعوبة من شدة الزحام. شعرت أنني قد أُدهَس تحت الأقدام فعبرت إلى الرصيف الأوسط حيث أعداد الناس أقل. سمعت صوت صياح يأتي من الرصيف الآخر أمام سينما نورماندي. كانت فتاة نحيلة مُحجبة تصرخ في فتى يبدو من نفس عُمري، ويبدو أنه كان يسير

خلفها ليضايقها. كان يُحرك ذراعيه أمامه مؤكدًا أنه لم يقترب منها. كانت الفتاة بصحبة صديقة لها لديها نفس الهيئة ونفس القامة. كلّ منهما مُحجبة وترتدي جونلة طويلة تصل إلى الكعبين، وبلوزة فوق بادي كارينا طويل الكمين. أما الفتى فكان معه صديق يقف عن بُعد يراقب الموقف ضاحكا، وكان كل منهما يرتدي تيشيرت قصير الأكمام على بنطلون جينز، وشبشبًا منزليًّا في قدميه. وقفت أتفرج وكأنني أشاهد فيلما قديما فيه البطل والبطلة وصديق البطل وصديقة البطلة. تركته الفتاة وأخذت تعبر الشارع إلى الرصيف الأوسط حيث أقف، لكنه تبعها كظِلها، مُحافظا على مسافة بينهما لا تزيد على ربع متر. فجأة وهي تهم بصعود الرصيف مد يده وقرصها في إليتها. رأيته من موضعي حيث أقف وشعرت بغضب شديد. استدارت له الفتاة وأخذت تصرخ في الشارع. صفعته على وجهه. دفعها من كتفيها وانطلق في سرد مختلف أنواع الشتائم، ناعتا إياها بالعاهرة، وقد انضم له صديقه في وصلة السباب، بينما وقفت صديقة البطلة على الناحية الأخرى ذاهلة. قررت أنني يجب أن أفعل شيئا. اتجهت نحوه وأخذت أنبح، لكنه لم يكترث بي. أشعرني هذا بالغيظ أكثر. قبضت بفمي على إحدى ساقَيْه وأخذت أجذبه من بنطاله وأنا أزوم. أخذ يركلني بقدمه الأخرى لكنني لم أتخلَّ عن ساقه، وقد أعطى

هذا الفتاة الفرصة كي تضربه عدة ضربات متلاحقة على رأسه باستخدام حقيبة يدها. أتى صديق البطل مُسرعًا والتقط حجرا من الأرض. شعرت أن الأمور تتطور فتركت البنطال وتراجعت، وبدأتْ وصلة جديدة من النباح الغاضب. ألقى صديق البطل الحجر نحوي. تفاديته في اللحظة الأخيرة. أخذت أزوم نحوهما غاضبا. قرر الاثنان أن ينسحبا وانطلقا يجريان باتجاه البازيليك. جريت خلفهما لنحو عشرة أمتار، ثم تركتهما وقفلت راجعا. كانت البطلة تجلس على الأرض تبكي بينما صديقة البطلة تُواسيها.

وقف الكثير من المارة ليتفرجوا. قال أحدهم إن أولاد الحرام لم يتركوا شيئا لأولاد الحلال، بينما سمعت آخر يقول إن ملابسها أضيق من اللازم، وقال ثالث إن الوقت متأخر على خروج الفتيات، وإنه كان يجب عليهما العودة إلى المنزل منذ وقت طويل. اقتربتُ من البطلة الباكية مُتوددًا. حاولت أن ألعق يدها لكنها تراجعت إلى الوراء ثم نهضت عن الأرض بسرعة. أمسكتْ بيد صاحبتها وجذبتها ليمضيا من المكان بتعجل. أحزنني هذا. إنها حتى لم تربّت عليَّ. لا بأس. لعلها تخاف من الكلاب أيضًا.

قررت أن أبحث عن مكان لقضاء الليلة. فكرت أن أبيت في الحديقة المجاورة للبازيليك. وصلت إلى هناك وأخذت أدور حول سور الحديقة، لكنني

لم أستطع أن أجد فتحة تكفي لمروري من بين قضبان السور الحديدي. تذكرت أن هناك حديقة مفتوحة وهادئة في شارع رشيد القريب. مشيت عبر شارع عثمان بن عفان، وكان المرور لا يزال متوقفًا. وصلت إلى التقاطع مع رشيد فانحرفت فيه ودخلت إلى الحديقة. كان الشارع هادئا إلى حد كبير مقارنة بالشوارع الرئيسية. شربت من بِركة ماء صغيرة متخلفة عن عمليات ريّ الحديقة. لحُسن الحظ أننا ما زلنا نمارس الريّ بالغمر وليس بالتنقيط مثل باقي دول العالم. قررت أن أقضي الليل هنا.

١٥

استيقظت في الفجر على صوت المؤذن الآتي من مكروفون المسجد المقام على جزء من الحديقة. لم أستطع النوم أمس حتى ساعة متأخرة. كان الضجيج في الحديقة لا يصدَّق. ما حدث هو أن مجموعة من الأولاد في عمر المرحلة الابتدائية ـ بدا لي أنهم أبناء بوَّابي المنطقة ـ أحضروا كرة قدم وأخذوا يلعبون مباراة في الحديقة. ليتهم يلعبون في هدوء، لكنهم لم يتوقفوا لحظة واحدة عن الصياح على بعضهم البعض، يتخلل الأمر مجموعة من الشتائم البذيئة إذا لم يوفَّق أحدهم في ركلة مُوجَّهة نحو المرمى، أو إذا تمكن الحارس من صد الركلة، أو حتى إذا لم يتمكن الحارس من صدها. كان صوتهم المزعج يُمزق هدوء الليل، حتى إنني كدت أفقد أعصابي وأهجم عليهم لأطردهم. أولادٌ عديمو الذوق، عديمو التربية. لا توجد أي مراعاة لوجود كبار سن في حاجة إلى الراحة، أو كلاب في حاجة إلى النوم والاسترخاء كي يتمكنوا من مواصلة البحث عن طعامهم وشرابهم في الصباح. لم تنتهِ هذه المباراة الجنونية إلا في... حسنا، ليس في إمكاني تحديد الساعة، ولا حتى بالتقريب، لكن الأمر استمر إلى وقت متأخر جدًّا في تقديري.

كنت مُتعبًا جدًّا هذا الصباح من قلة النوم. ربما كان من الأفضل لي أن أستقر على النوم في الفيلَّا المهجورة في شارع أجا حيث الهدوء. من ناحية أخرى فقد ظهرت لديَّ مشكلة غريبة، أو ربما هي ليست شيئا غريبا لدى الكلاب. كنت أريد أن أهرش بشدة في ظهري. أخذت أحك ظهري بإحدى قائمتيَّ الخلفيتين، لكنني لم أستطع الوصول إلى الجزء المطلوب، فأخذت أحكه في أحد الأشجار. إنه برغوث. لا شك أنه برغوث. لا بد أنه انتقل إليّ من أحد أولاد البوَّابين الذين كانوا يلعبون في الحديقة أمس. لا أعرف لمَ تحب البراغيث الكلاب إلى هذا الحد. هناك مقولة إنجليزية تقول إنك إذا نمت مع الكلاب فإنك ستستيقظ مع البراغيث. يمكنك ألا تنام مع الكلاب كي تبتعد عن البراغيث، لكن ماذا تفعل إذا كنتَ أنتَ الكلب؟ ليست لديَّ مشكلة في أن يكون هذا برغوثا. المصيبة لو كانت قرادة. إن التخلص من القراد في صعوبة التخلص من دكتاتور من أمريكا اللاتينية. كان لديَّ صديق يهوى تربية الكلاب وقد أصيب كلبُه بالقراد. بعد إصابة الكلب أصيبت أم صديقي بالذعر وأجبرته على تسريح الكلب وأقسَمَتْ ألا يدخل إلى المنزل مرة أخرى. سرّح صديقي كلبَه وهو يبكي. لم أستطع أن أتعاطف معه وقتها. الآن أستطيع أن أشعر به، بل وأن أشعر

بالكلب أيضًا. كانت أضلعي لا تزال تؤلمني منذ الركلة التي تلقيتها من موظف متجر العجيل، لكنني كنت أتجاهل الألم باستمرار. لم يكن ينقصني سوى هذا الهرش أيضًا!

تركت الحديقة وسِرت في الشارع حتى مدرسة رشيد الابتدائية، وبجوار سور المدرسة كانت أكوام القمامة قد بدأت في الظهور. تناولت إفطاري، ثم أخذت في التجول في المنطقة. انعطفت في شارع أسيوط. مررت على تقاطع أسيوط مع شارع صلاح الدين، ثم منوف، ثم عند التقاطع مع بيروت وقفت قليلا أتأمل القصر المهيب الذي يحتل ركن الشارع. لا أفهم في الطرز المعمارية، لكنه ساحر حقًّا؛ بشرفاته المزخرفة وكل أشجار الصنوبر التي تحيط به. مزية أن تكون كلبا هي أنك تصبح حُرًّا في التجوال والوقوف والفرجة، ولن يأتي أحد ليسألك ماذا تفعل أو ما الذي أتى بك هنا كما يحدث عادة في الشارع المصري. لاحظت أن القصر مهجور إلا من بوّاب وأسرته يسكنون المبنى المُلحق بالحديقة. فكرت أن أدخل لأتجول بالداخل، لكن فتحات السور الحديدي كانت أضيق من أن تسمح لي بالمرور.

تركت القصر وسِرت في شارع العروبة. كان الشارع مزدحما في هذا الوقت الصباحي. وجدت نفسي أمام مدرسة مصر الجديدة للبنات. كان هذا

على ما يبدو موعد الدخول إلى المدرسة. كانت الفتيات يتجهن في مجموعات صغيرة إلى البوابة، مُرتديات الزي المدرسي. وقفت بالقرب من الباب أتفرج عليهن. تذكرت فيلمًا قديمًا لحسن يوسف بعنوان «مذكرات تلميذة»، كان يقف فيه في هذا المكان بالضبط يراقب الفتيات وهن داخلات إلى المدرسة. وقفت أتفرج بكل أريحية، فكوني كلبا لن يُعرضني لاتهام بالتحرش. أخذت أتفرس في الملامح. لم أجد واحدة تعجبني. شعرت بالإحباط. تذكرت منظر الفتيات وهن داخلات إلى المدرسة في الفيلم. هل كانت الفتيات أجمل في ذلك الزمن؟ هل يُضفي الأبيض والأسود هالة مُخادعة من النوستالجيا على الأشياء تجعلها تبدو أجمل؟ أم لعلها الملابس المتحفظة أكثر من اللازم التي ترتديها الفتيات اليوم قد جعلتهن أقل أنوثة؟

بعد قليل تم إغلاق الباب وسمعت صوت إحدى المُدرسات تصرخ في المكروفون لتنظيم الطوابير. ذكّرتني بمَدرستي وطابور الصباح المُمل والسخيف. شعرت بالغثيان وقررت الابتعاد.

تذكرت طابور الصباح في مَدرستنا، وكيف نفتتح يومنا على الصوت الجهوري الجاعوري لمدرّس الألعاب وهو يسب ويلعن في المكروفون. يقف على منصة مرتفعة تكشف له ساحة المدرسة. تتساقط

من فمه مقذوفات من التهديدات والشتائم كطائرة حربية أمريكية تُلقي حمولتها من القنابل على قرى فيتنام. لكننا لا نكترث. نتحدث معًا أثناء الطابور دون أن نحرك رءوسنا ودون تحريك الشفاه، فلا يستطيع تحديد مَن الذي يتحدث بالضبط. أحيانا يكون صوت الحديث أعلى من اللازم لكنه لا يستطيع ضبط أي شخص يتكلم ولا يستطيع تحديد مصدر الصوت. يصيبه هذا بالجنون فيأخذ في ضرب بعضنا بالعصا بشكل عشوائي. أحيانا أفكر في أن تحولي إلى كلب أفضل من ذهابي إلى مثل تلك المدارس.

أكملت السير عبر شارع بيروت ثم كليوباترا. في منتصف الشارع كان هناك تجمُّع كبير من الناس أمام استوديو التصوير. عروسان في سيارة مُزينة بالزهور تقف أمام الاستوديو. يبدو أنهما سيأخذان صور الزفاف الآن. وقفت مع الواقفين أتفرج. نزلت العروس أخيرًا من السيارة وكانت في كامل زينتها. نزل العريس خلفها. العروس بيضاء وسمينة جدًّا، بينما العريس أسمر ونحيف. كان شكلهما مُتناقضًا بشدة. كلما رأيت عريسا وعَروسَهُ أخذت لا إراديا أتخيلهما في أوضاع حميمة. فكّرت أن العريس سيُعاني كثيرا اليوم.

قضيت بقية اليوم في التجوال في الشوارع والفرجة

على الناس والبيوت. تجولت في شوارع زفتى وأشمون وتلا، ثم عُدت إلى عثمان بن عفان، وعبرت إلى شارع شبين وخرجت من عمر بن الخطاب إلى ميدان الإسماعيلية ثم عُدت مرة أخرى إلى سفير عبر عثمان بن عفان. استغرق مني هذا التجوال النهار كله. مع مغادرة آخر خيوط الشمس لصفحة السماء كنت قد بدأت أشعر بتعب شديد، فقررت أن يومي قد انتهى عند هذا الحد. عليَّ أن أستعد للنوم.

توجهت إلى الفيلَّا المهجورة بشارع أجا، والتي اعتدت قضاء الليل في حديقتها أسفل شجرة المانجو. لم أجد الفيلَّا ولا شجرة المانجو. كانت هناك أرض فضاء مليئة بالركام، وبلدوزر أصفر بالداخل، وحواجز من الصاج أسفل الرصيف. شعرت بفجيعة كبرى كأن بيتي قد هُدم فوق رأسي. لم أدرِ ماذا أفعل.

قادتني قدماي إلى بيتي، المكان الذي طُردتُ منه مُرغمًا، ودُفعت إلى الشوارع قَسرًا. كنت خائفا وأنا أقترب. أخذت أتلفت حولي مُبطئا خطواتي قدر الإمكان. ظللتُ أقترب والبيت يظهر من بعيد من بين الأشجار، في الإضاءة الليلية الصفراء لمصابيح الشارع. كان المحل مغلقا رغم أن الوقت مُبكر على الإغلاق. نظرت إلى أعلى فرأيت أختي. كان وجهها مسودّا ومتّسخا، ترتدي جلبابا قذرًا مُمزقا

وتقوم بنشر الغسيل على الحبال. ها قد تحول الأمر إلى Fairy Tale مثاليّة. الساحرة الشّريرة تتخلّص من الأم وتستحوذ على الأب وتسيطر على المنزل. يتم سحر الابن وطرده من البيت، بينما تتعذّب الابنة وتعمل كخادمة للساحرة. ما الذي يحدث وكيف وصلنا إلى هذه النقطة؟ هل على أختي أن تَحيكَ لي قميصا من نبات القراص وهي ممتنعة عن الكلام حتى أتحرر من السحر، كما في قصة البجعات الست؟ هل حدث تداخل بين عالَمِي وعالم قصة أطفال خيالية؟

في رواية هاروكي موراكامي 1Q84، ترى أومامه بطلة القصة قمرًا ثانيا في السماء. مِن هذا الحدث تستدِل أومامه على التغيير الذي حدث في عالمها، انحراف في مسار العالَم أدى إلى تغيّر كل شيء. تكتشف أومامه أنها تعيش في عالَم آخر غير الذي تعرفه. عالَم مُوازٍ. عالَم يحمل في طيَّاته تساؤلا وشَكًّا.

نظرتُ إلى السماء فلم يكن هناك سوى قمر واحد. ليست هناك أي إشارة إلى حدوث ذلك الانحراف في المنطق. أم لعل هناك إشارة لا أتمكن من رؤيتها؟

من أين أتت هذه الساحرة؟ ولماذا نحن بالذات؟

شعرت فجأة باليأس يتجمع في صدري، وأخذ يكبر ويتعاظم حتى ملأ قلبي بالسواد. رفعت رأسي إلى القمر، ورغمًا عني، أغمضت عيني وأخذت أعوي. عويت بأعلى صوت لديّ. عَويت طويلا ومَديدًا. عَويتُ بحرقة. ظللت أعوي بشكل مُستمر وقد اندمجت في العواء كأنني أرثي حالي وأنعي مصيري. سمعت أصوات نوافذ تنفتح وتنغلق، ويبدو أنني أفزعت سكان الشارع. فتحت عينيَّ فرأيت سونيا تتطلع إليَّ من الشرفة.

١٦

رؤيتي لسونيا في الشرفة جعلتني أُعيد تذكُّر كل الأحداث العجيبة التي مرّت بي، بعد أن كنت قد تأقلمت، أو كدتُ، على حياتي الكلبيّة الجديدة، وبدأت أنسى حياتي الإنسيّة السابقة. كنت أريد أن أنسى. تذكُّر هذه الأشياء لا يجلب إلا الحزن. أعتقد أيضًا أن جزءا من تحوّلي يتضمّن تغييرات عقليّة، وهذه التغييرات تتضمّن النسيان، وأنا وإن كنت لم أنسَ كل شيء كليّة بعد، إلا أنني أشعر أن ذاكرتي القديمة تتلاشى. ببطء شديد لكن بثبات. مثل مهاجر إلى عالم جديد أخذ يتأقلم على حياته الجديدة، بينما ذكرياته عن وطنه القديم تتوارى إلى الخلف باستمرار، إلى أن تُنسى مع اكتسابه الكامل لمُقومات مهجره فيُصبح أجنبيا بالكامل. مع ذلك فحالتي ليست قريبة من هذا التبسيط المُخل. إنني أنسى بشكل لا علاقة له بآليات الذاكرة المعروفة. إن نسياني يتم على مستوى جزيئي. على مستوى الحمض النووي نفسه. أعرف أنه سيأتي يوم أنسى فيه كل شيء، عندها سأفقد كل ما تبقى من إنسانيتي وأُصبح حيوانا كاملا.

كنت قد جريت إلى الميدان بمجرد رؤيتي لسونيا

وقد تملكني خوف غير قابل للتحكم. خوف حيواني. جلست بجوار محطة المترو ألهث. ظللت جالسا لفترة طويلة إلى أن هدأ انفعالي، وبدأتْ طِباعي الحيوانية تطغى عليّ من جديد. فجأة سيطرت غريزة الأكل على كياني بالكامل، وصار كل همّي هو الحصول على مزيد من الطعام.

كانت كومة كبيرة من القمامة مُلقاة بجوار قضبان المترو. رأيت ثلاثة كلاب بجوار القمامة. كان الأول يتشمم مؤخرة الثاني، بينما الثالث يلوك شيئا زهري اللون في فمه. اقتربت منه ففوجئت به يمضغ فوطة صحية مُلوثة بالدم. شعرت بالتقزز وعُدت أدراجي. كانت رائحة الحواوشي المميزة قد بدأت تملأ الميدان. اتجهت إلى المحل وأخذت ألتقط الأوراق التي تُلفُّ فيها أرغفة الحواوشي والتي يُلقيها الناس على الأرض بعد الأكل. هنا التقط أنفي الحساس أكثر من اللازم رائحة مميزة، رائحة أعرفها لأشخاص لم يستحموا منذ سنوات. إنهم أصدقائي من شمّامي الكُلة الذين يقيمون بجوار كوم القمامة في شارع إسماعيل رأفت. تتبعت الرائحة ووجدتهم فعلا يجلسون في مكانهم المعتاد عند الناصية. ذو الندبة وذات العباءة السوداء وواحد آخر لم أره من قبل. ذلك الثالث كان برتقالي الشعر ويبدو أنه يصبغ شعره بماء الأكسجين. كان ثلاثتهم يجلسون

على الأرض مستندين بظهورهم إلى سور العمارة ويدخنون. اتجهت إليهم سعيدا. رآني ذو الندبة فابتسم. أخذ يربت على ظهري بينما ألعق وجهه.

جلست بجوارهم. كانوا يتحدثون ويشعلون سيجارة من أخرى. من حين لآخر كان ذو الندبة يربت عليّ، وكان هذا الأمر يُسعدني ويجعلني لا أريد أن أقوم من مكاني. لم أركّز فيما يقولون. لعلي لم أتابع أو لم أسمع أو لم أفهم، أو ربما لم أكن مُهتمًّا. كان كل تركيزي في مسألة التربيت على الظهر. أراقب يده طوال الوقت في انتظار التربيتة التالية. أراه يحرك يده مع الكلام، ويشير إلى هنا وإلى هناك. أترقب. أحيانا يطول الأمر وينساني فأنبح حتى أُذكِّره، عندها قد يربّت على ظهري أو يهرش لي عنقي. تكفيني هذه المكافأة العُظمى كي أنتظره ثانية بهدوء وبدون إزعاج. إنها أفضل من الطعام ومن الشراب.

ظللت جالسًا هكذا لفترة طويلة. لعلها ساعات. أول مرة أسهر إلى ساعة متأخرة كهذه. كانت الحركة في الشارع قد توقفت تماما وأغلقت كل المحال أبوابها، الصيدلية ومغسلة السيارات، وحتى المقهى المُقابل أغلق. الشارع هادئ تماما ويكاد لا يُسمع فيه صوت. هنا قام صاحب الشعر البرتقالي ومضى مُتجها إلى الميدان بينما بقي ذو الندبة وذات العباءة جالسَيْن. بعد قليل نظر إليها دون أن يتكلم

ثم نهض الاثنان وقفزا من فوق سور العمارة إلى الحديقة الصغيرة. وقفت لأنظر. رأيتهما يقفزان داخل شرفة شقة الدور الأرضي. هناك قِطَع خشبية صغيرة مُسمَّرة في شيش الشرفة من الخارج كي لا يمكن فتحُه، ومن الواضح أن هذه الشقة مهجورة لا يسكنها أحد.

قفزت خلفهما إلى الحديقة، وحاولت أن أقفز داخل الشرفة إلا أنني لم أستطع؛ فقد كان السور مرتفعا. نظرت حولي فإذا حجران كبيران موضوعان فوق بعضهما البعض، ويبدو أنهما موضوعان هكذا عن عَمْد لتسهيل القفز إلى الشرفة. وقفت فوقهما وهكذا استطعت القفز إلى الشرفة أخيرا. رأيت ذات العباءة وهي تجلس على ركبتيها وقد رفعت عباءتها حتى وسطها، وكانت لا ترتدي ملابس داخلية، أما ذو الندبة فقد أنزل مقدمة بنطاله وأخذ يبصق على شيئه مُحركًا يده فوقه، ثم التصق بذات العباءة من الخلف. كاد قلبي أن يتوقف من هول ما رأيت. أخذ ذو الندبة يتحرك أمامًا وخلفًا. كانا صامتَيْن تمامًا، وكان الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه هو صوت احتكاك الملابس. بعد دقيقة أو نحوها أخرجه منها ورفع مقدمة بنطاله، بينما اعتدلت هي في جلستها وأنزلت العباءة عن وسطها، ثم أخذت تُحكم رَبط غطاء الشعر. هكذا بكل بساطة.

أما أنا فقد كنت في حالة غير طبيعية من الإثارة، حتى إنني كنت أشعر بدقات قلبي في أذنيَّ. رقدت على الأرض كي أخفي تصلّب عضو الكلب، وحاولت ألا يبدو عليّ أنني كنت مهتما بما حصل، لكنهما لم يُعيراني اهتمامًا. رقدا على أرضية الشرفة التي لاحظت أنها مفروشة بكراتين قديمة، وفي لحظة راح الاثنان في نوم عميق.

لم أستطع النوم البتة. ظللت راقدًا هكذا على بطني أستعيد المشهد في ذهني مرارا وتكرارا، كأنه ملف فيديو يُعيد نفسه تلقائيا كلما انتهى. مهما حاولت أن أطرد المشهد من ذهني لم أستطع. أعتقد أنني حتى لو نمت فسأحلم بكل تفاصيله. أخذت أحك بطني في الكراتين المفروشة أسفلي حتى استمْنَيْت، ولم أكن أعرف أن الكلاب تفعل ذلك أيضًا.

١٧

استيقظت في الصباح فلم أجد صاحبيّ.

كيف نهضا وقفزا ومضيا دون أن أشعر بهما؟! أنا الذي أشعر بكل حركة مهما كانت بسيطة. لعلي كنت مُرهقا جدًّا بسبب كثرة المشي إضافة إلى الأرق الذي أصابني بالأمس.

نهضت واقفا. كان قلبي يدق بشكل غريب، وشعرت ببرودة في صدري، كأن بين أضلعي قطعة من الثلج.

كانت أحداث الأمس لا تزال تدور في رأسي. قفزت من الشرفة ثم من السور وأخذت أشاغل نفسي بالبحث عن طعام في كومة القمامة، أخذت ألوك كل ما يمكن أن يصلح للأكل، مُركزًا كل حواسي وتفكيري في الطعام، لكني ضبطت نفسي أكثر من مرة أفكر في ذات العباءة السوداء ومؤخرتها الضخمة. تُرى أين ذهبا؟ وأين يقضيان النهار؟

حاولت أن أصرف ذهني بمواصلة النبش في القمامة. هنا أتى قط وعبرَ من أمامي بلا اكتراث ثم صعد فوق قمة الكومة وأخذ ينبش ويتشمم.

مرة أخرى شعرت بالغيظ وتذكرت مواجهتي مع ذلك القط الشرس عند النافورة، والتي خرجت منها منسحبا مُؤْثِرًا السلامة. كان منظر القط يجعل الدم يغلي في عروقي. هل هناك جِينٌ لدى الكلاب يجعلها تغتاظ من القطط؟

رفع القط وجهه فرآني أنظر إليه، وفي الحال ضيَّق عينيه بترفّع وأشاح بوجهه مُشمئزًّا، بتلك الطريقة الأرستقراطيّة التي تتصرّف بها القطط!

تلك القطط الوقحة، المُتعجرفة، عديمة الذوق، تتصرّف أمام الكلاب وكأنها جنس أرقى وأهمّ، دون أي مراعاة لعوامل مثل الحجم وفارق القوة البدنية وقوّة الفكّ والأنياب. إنها لا تستطيع شيئا في المواجهات المباشرة أكثر من بعض الخربشات، وهو شيء لا يُقارَن مثلا بعضَّة كلب تستطيع أن تمزق اللحم. تلك القطط! ماذا تظنّ نفسها؟! لعلها تحمل بقايا العجرفة هذه منذ أن انحدرت عن سُلالات الأسود. فقدت حجمها ومعظم قوتها لكنها لم تفقد الفخر والكبرياء وترفُّع الملوك وتَملمُلَهم. أيَا جنس القطط، انظروا إلى أنفسكم على أي صفحة ماء! حقًّا لقد كنتم مُلوكًا، لكن هذا كان منذ زمن بعيد جدًّا. لقد مضت آلاف السنين الآن. نحن أيضًا كنا مُلوكًا وفراعنة وسادة وانظروا أين أصبحنا بين الأمم. الفرق بيننا وبينكم أننا نعرف الآن قدرنا ولا نرفع

أعيننا عن أرجُلنا.

حين قلت «نحن» كنت أقصد نحن المصريين وليس نحن الكلاب. لقد ضبطت نفسي مرة أخرى وأنا أحسب نفسي بين البشر، ربما كان عليَّ أن أتوقف عن هذه العادة إذا أردت أن أحافظ على سلامي النفسي.

كنت ما زلت حائرا أين أذهب، حين التقط أنفي الرائحة، ووجَّهني أنفي إليها، حينها رأيتها.

كانت تقف على الرصيف الآخر تحدّق بي. إنها كلبة من نفس فصيلتي. لونها بُني فاتح. رأسها أفتح قليلا من باقي جسمها. كيف يمكن أن أواصل وصفها بعد؟ إن كل الكلاب تتشابه، حتى بالنسبة لي أنا الكلب، أو الإنسان المرتدي ثوب كلب. ما زلت أفتقر للكثير من مهارات الكلاب. لا بد أنهم يتعرفون على بعضهم البعض بطريقة أفضل. لا توجد طريقة أقرّب بها وصف هذه الكلبة للأذهان، كما توصف الفتيات بالرشاقة أو اتساع العينين أو اكتناز الشفتين أو اتساق الملامح. إنها كلبة وكفى. كل ما يمكن أن أضيفه هو نظرة الحزن في عينيها، ثم ما شعرت به فيهما، وما ترجمته بأنه نداء.

عبَرتُ الشارع إليها، وبمجرد أن فعلت، أخذتْ

تحك رأسها في بدني.

سَرتْ بي قشعريرة. كهرباء مُنعشة تسري في أوصالي. إنه شعور لم أشعر به من قبل. شعور بالدفء، وما دمت كلبا فإني سأصفه بالدفء الكلابي. أخذت أبادلها حك الرأس. شعرت بسعادة مُفاجئة. لقد صارت لي رفيقة!

لطالما كنت أحسد أصدقائي الذين يَقدرون على إقامة علاقات صداقة مع الفتيات، حين يتسلل الواحد منهم ويقضي أمسية لطيفة مع صديقته بنقود الدرس، يأخذها إلى كافيه أو مول أو حديقة يجلسان معًا يتسامران ويتبادلان اللمس. كنت أشعر بغيظ شديد. لم تكن لديّ الجرأة ولا المهارة ولا اللباقة ولا الخبرة ولا القدرة على فعل هذا. كنت أفتقر دائمًا إلى القدرة على المبادرة، والفتيات لم يكُنَّ يُبادرن أبدًا. لكن ها هو ذا الأمر يحدث أخيرا. يبدو أن الأمور أسهل بكثير في عالم الحيوان، كما أن إناث الحيوانات لا يخجلن من اتخاذ زِمام المبادرة، ولن يتهمهن أحد بسوء الأخلاق.

أخذت تسير وأنا أتبعها. لا أعرف إلى أين هي ذاهبة، لكني كنت أعرف أنها تطلب مني ذلك. سارت حتى شارع أبي بكر الصديق. عبَرنا الشارع بسهولة في هذه الساعة الصباحية المزدحمة بسبب

تباطؤ حركة السير، ثم اتجهنا إلى شارع أفلاطون، وعند التقاطع مع شارع رشدي كانت هناك كومة ضخمة من القمامة. إنها تدعوني إلى الإفطار! أخذنا ننبش بين الأكوام، وكان هناك بالفعل الكثير جدًّا مما يمكن أن يؤكل، وليس كالكومة التي أعتمد عليها، والتي يتم رفعها أولا بأول. وجدنا الكثير من عظام الدجاج، والكثير من جلد الدجاج المُحمّر، ويبدو أن إحدى ربات البيوت القريبة تتخلص من جلود الدجاج قبل الأكل، نظرا لما يُشاع عنها بأنها مشبعة بهرمونات منع الحمل الأنثوية، والتي تؤدي بالرجال إلى تضخم الثدي، وتثبيط هِمّتهم الجنسية، وشكرت في نفسي حِرص هذه المرأة البالغ على ثديَيْ زوجها وهمته.

أكلنا حتى شبعنا. وقفتْ تنظر لي وتهز ذيلها. هنا شعرت بشيء غريب. شعرت بحرارة تغمرني، وشعرت بشيئي يتصلَّب.

كنت قد قرأت من قبل عن الفيرمونات في إحدى المجلات العلمية، وهي هرمونات خارجية يفرزها البشر والحيوانات من الغدد الموجودة تحت الآباط وفي المنطقة التناسلية. هذه الفيرمونات تحمل رسائل كيميائية مُوجَّهة يتم استقبالها عن طريق أنف الكائن الآخر. إنها الطريقة التي يعرف بها الكلب أنك خائف منه فيُقرر أن يُطاردك، عندما يشم

فيرمون الخوف الذي يفرزه جسمك. إنها تختلف عن الهرمونات لأنها تفرز خارج الجسم لا داخله، وتحمل أوامر إلى كائن آخر وليس لأعضاء الجسم.

لقد تلقيت دعوة للمُعاشرة. كان الأمر أقوى مني، وأنا من البداية كان لديَّ توْقٌ مُضنٍ ويائس نحو هذا الأمر. كانت الدعوة قوية جدًّا لدرجة أنها هزتني من الداخل، وشعرت بجسدي يرتعش. أخذت أقاوم. لم أكن أريد أن أقع في خطيئة كهذه، ومع كلبة. لكن هل يتم حساب السيئات للكلاب؟ ألا يمكن اعتبار هذا ظرفًا استثنائيا قاهرا؟

اقتربت مني وأدارت لي ظهرها، وهنا شعرت أنني قد وصلت إلى نقطة اللاعودة، كنت مدفوعا بقوة من الصعب مقاومتها، فصعدت على ظهرها. لم أكن أعرف كيف يتم الأمر. أنا عديم الخبرة تماما، لكنها ساعدتني. أخذت تتحرك حتى تم الإيلاج. شعرت بشيئها ساخنا ورطبا، لقد دخلت إلى جنة استوائية طالما حلمت بها، وفجأة شعرت بشيئها يتقلّص ويقبض على عضوي بإحكام، كأنه تحول بغتة إلى كلابتين من فولاذ، فضلا عن ذلك شعرت بأن جزءا من شيئي قد تضخم وصار أكبر من أن يمر من الفتحة. لم أعد قادرا على إخراجه حتى لو أردت ذلك. شعرت بالذعر في البداية، وحاولت جذبه إلى الخارج وأخذت أتحرك إلى أن وجدت نفسي أدور

فصار ظهر كل منا مقابلا للآخر! أدرت نفسي مرة أخرى حتى استطعت أن أعتلي ظهرها. قررت أن أترك الأمور تمضي بشكل طبيعي وألا أقلق أكثر من اللازم، لكن شعور الخجل ظل يلازمني. كنا نفعل هذا على الرصيف في الشارع جهارا نهارًا. كنت خائفا من أن يرانا أحد، أو أن نتعرض للرجم بالحجارة كما اعتاد الناس في بلادنا أن يفعلوا بالكلاب التي تمارس المضاجعة، لكن لحُسن الحظ كان هذا الشارع هادئًا أكثر من المعتاد. مضى وقت طويل، ربما أكثر مما كنت أظن عن المدة التي تستغرقها هذه العملية، ثم قذفت أخيرا. قذفت كل الكبت الذي كان يُتعبني ويُكبّلني ويُعذّبني إلى غير رجعة، وقرّرت التّرحيب بحياة حيوانيّة، لكنها طبيعية وأكثر بساطة ورحمة.